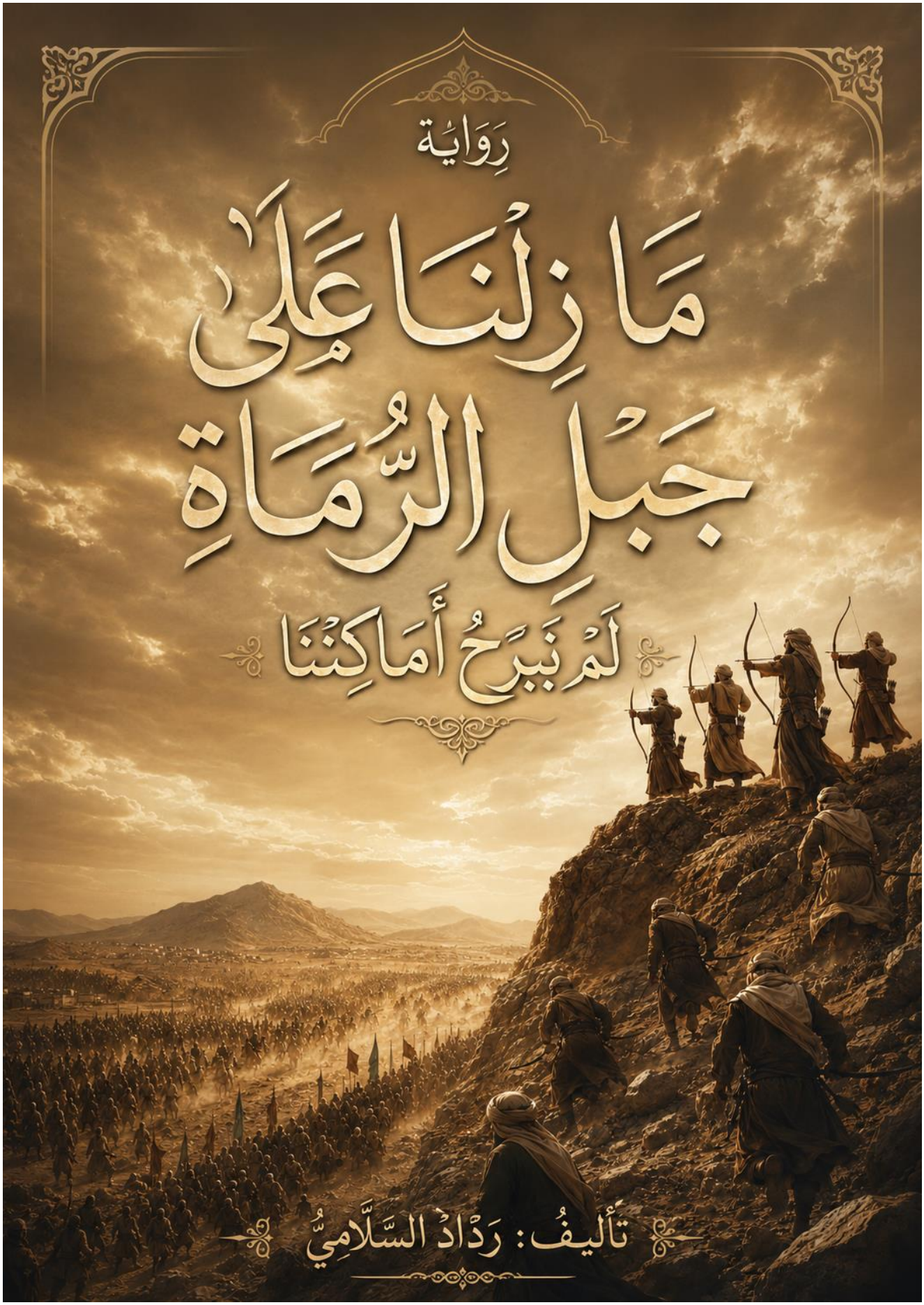
رِوَايَة
مَا زِلْنَا عَلَى
جَبَلِ الرُّمَاةِ
لَمْ نَبْرَحْ أَمَاكِنَنَا
تأليفُ: رَدّادُ السَّلَامِيُّ

رواية

مَا زِلْنَا عَلَى جَبَلِ الرُّمَاةِ
لَمْ نَبْرَحْ أَمَاكِنَنَا

رداد الســلامي

﴿مِنَ المُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا﴾

بداية

ما زِلْنا على جَبَلِ الرُّمَاةِ، لم نَبْرَحْ أماكِنَنا.

هذه ليست جملةً تاريخيةً فحسب، بل ميثاقُ ثباتٍ في زمنٍ كثرت فيه الغنائمُ الخادعة، وتبدّلت فيه الأصوات، وتزاحمت فيه النداءات التي تقول للإنسان: انزل، خذ نصيبك، لا يفوتك الركب، الناس سبقوك، الفرصة تمرّ.

لكن صاحب البصيرة يعرف أن موضعه ليس حيث يكثر التصفيق، بل حيث أقامه التكليف.
يعرف أن الجبل أحيانًا ليس حجارةً تحت القدم، بل عهدٌ في القلب، وأمانةٌ في الوعي، وموضعُ حراسةٍ لمعنى لا يجوز أن يُترك مكشوفًا.

جبل الرماة هو كل ثغرٍ أمرنا الوحي أن نقف عليه: ثغر الكلمة الصادقة، وثغر العقيدة النقية، وثغر الوعي، وثغر الأخلاق، وثغر نصرة الحق، وثغر مقاومة الفساد، وثغر ألا نبيع المعنى حين تلمع الغنيمة.

ومن بقي على الجبل لم يكن عاجزًا عن النزول، بل كان أرقى من أن يخون موقعه.
لم يكن محرومًا من الغنيمة، بل كان محروسًا من فتنتها.
لم يكن متأخرًا عن الناس، بل كان متقدّمًا في ميزان الطاعة.

والأجمل في هذه الرواية أنها ليست رواية تاريخية مباشرة عن غزوة أُحد، بل رواية معاصرة ذات ظلال أُحُدية؛ أي أن يكون جبل الرماة حاضرًا

كرمزٍ ممتدٍّ في حياة أبطال يعيشون في زمننا، أمام إغراءات المال، الشهرة، السلطة، الانتماءات، الهزيمة النفسية، وبيع المبدأ باسم الواقعية.

يمكن أن تكون هذه الرواية عن جماعة صغيرة من الشباب أو الكتّاب أو المصلحين أو الصحفيين أو العلماء أو المقاومين المعنويين، يجدون أنفسهم في مدينة عربية مضطربة، وكل واحد منهم مُقام على "ثغر" من ثغور المعنى. ثم تبدأ الغنائم الحديثة بالظهور: منصب، شهرة، تمويل، أمان، زواج، هجرة، اعتراف اجتماعي، نجاة فردية. فينزل بعضهم عن الجبل، لا لأنه كفر بالقضية، بل لأنه أقنع نفسه أن النزول "حكمة"، وأن البقاء "جمود"، وأن الغنيمة "فرصة لا تتكرر".

أما البطل الحقيقي فلا يكون بطوليًا بصخب، بل يكون إنسانًا ممزقًا، يعرف ثمن البقاء، يشعر بالخوف، يرى الآخرين ينجون، يسمع السخرية، يخسر أشياء كثيرة، لكنه يظل يقول في داخله:

لم يأمرنا النبيُّ أن نبقى حتى نرى الغنيمة، بل أمرنا أن نبقى حتى يأذن لنا.

وهنا يولد العمق الإسلامي للرواية: ليست رواية وعظية، ولا خطابة دينية، ولا شخصيات ملائكية، بل رواية عن **الطاعة حين لا تكون مفهومة للناس، وعن الثبات حين يبدو خسارة، وعن الجبل بوصفه اختبارًا للنية لا مجرد مكانٍ في التاريخ**

رِوَايَةٌ عَنْ ثَغْرِ المَعْنَى وَفِتْنَةِ الغَنِيمَةِ

إهداء

إلى الذين بقوا في مواضعهم حين لمعت الغنائم،
ولم يجعلوا حركة الناس دليلًا على تغيّر الأمر،
ولا ضجيج السفح برهانًا على انتهاء المعركة.

إلى حُرّاس المعنى في الأزمنة التي تُبدَّل فيها الأسماء،
فيُسمّى الخوف حكمة، والمداهنة اتزانًا، والتنازل نضجًا،
ويبقى في الأرض رجالٌ ونساءٌ يعرفون أن الأمانة لا تُقاس بما تمنحه من مكاسب،
بل بما تحفظه من وجوهٍ وقلوبٍ وعهود.

إلى كل من وقف على جبلٍ لا يراه الناس،
يحرس كلمةً، أو مبدأً، أو قلبًا، أو بيتًا، أو ذاكرةً،
لا يطلب تصفيقًا، ولا ينتظر مكافأة،
غير أنه يخاف أن يترك الموضع الذي أقامه الله فيه.

وإلى كل أبٍ ترك في قلب ابنه جملةً واحدةً
صارت بعد موته جبلًا كاملًا:

لا تَنْزِلْ عَنِ الجَبَلِ، وَلَوْ رَأَيْتَ النَّاسَ يَجْمَعُونَ الذَّهَبَ.

إليهم جميعًا،
أهدي هذه الرواية.

تمهيد

الجبل الذي لا يراه أحد

لم يكن أبي يحدّثني عن أُحُدٍ كواقعةٍ مضت، ولا عن جبل الرماة كموضعٍ من حجرٍ وقف عليه رجالٌ في يومٍ من أيام السيرة، ثم انطوى المشهد في بطون الكتب، بل كان يذكره كأن الجبل ما يزال قائمًا في مكانٍ خفيٍّ من الروح، وكأن المعركة لم تنتهِ، وكأن كل إنسانٍ يولد وفي داخله سفحٌ تلمع عنده الغنائم، وقمةٌ صامتةٌ ينتظر عندها الأمر، ووديان متقابلان: وادي الطاعة حين لا يصفّق لها أحد، ووادي الرغبة حين تتزيّن بأسماءٍ كثيرةٍ حتى لا تبدو رغبةً عارية.

كان يقول لي، وأنا صغير لا أفهم من الدنيا إلا ما تراه العين:

يا سليم، لا تنزل عن الجبل ولو رأيت الناس يجمعون الذهب.

لم أكن أدري يومها أي جبلٍ يقصد، ولا أي ذهبٍ هذا الذي يحذرني منه رجلٌ عاش عمره كله فقيرًا إلا من كرامةٍ صعبة، وكتابٍ عتيق، وسبحةٍ داكنةٍ تآكلت حباتها بين أصابعه، وصوتٍ خافتٍ إذا قرأ القرآن بدا كأنه يغسل البيت من غبار الأيام. كنت أظن الجبل مكانًا بعيدًا، وأن الذهب معدنٌ يلمع في أيدي التجار، وأن الطاعة كلمةٌ تقال في المسجد ثم تعود الحياة بعد الصلاة إلى سيرتها الأولى؛ لكنني عرفت متأخرًا أن الجبل قد يكون مكتبًا صغيرًا تكتب فيه كلمةً لا ترضي أحدًا، وقد يكون صفحةً بيضاء تخاف أن تملأها بما تؤمن

به، وقد يكون صمتًا ترفض أن تبيعه، وقد يكون موقفًا واحدًا يكلّفك كل الذين أحببتهم.

وكان الذهب، يا للعجب، لا يأتي دائمًا أصفرَ فاقعًا، بل يأتي أحيانًا في هيئة أمان، أو منصب، أو نجاة، أو شهرة، أو مديحٍ واسع، أو دعوةٍ إلى الواقعية، أو يدٍ تربت على كتفك وتقول لك: كن عاقلًا، لا أحد يطلب منك أن تخون، فقط خفّف قليلًا، بدّل العبارة، اترك هذه الجملة، لا تقل كل ما تعرف، لا تفتح الباب على نفسك، لا تكن أكثر طهارةً من العالم.

هكذا بدأت أفهم أبي بعد موته.

كان الموت أحيانًا يشرح الأحياء أكثر مما تفعل حياتهم.

الفصل الأول

الجملة التي تركها الأب

في مساءٍ باردٍ من مساءات المدينة، كانت الريح تمرّ بين الأزقة كأنها تبحث عن شيءٍ ضائع، وكانت المصابيح المعلّقة على واجهات المحالّ ترتجف فوق الإسفلت المبتل، بينما جلس سليم بن ناصر في غرفةٍ ضيقةٍ فوق سطح بيتٍ قديم، يحدّق في ورقةٍ لم يكتب فيها إلا العنوان:

ما زلنا على جبل الرماة، لم نبرح أماكننا.

ظل ينظر إلى الجملة طويلًا، كأنه لا يقرأها بل تُقرأ فيه، وكأن الحروف لا تستقر على الورقة، وإنما تصعد من مكانٍ قديمٍ في صدره، من تلك المنطقة التي لا يصل إليها أحد، حيث تختبئ وصايا الآباء، ودموع الأمهات، وخسارات الطفولة، والكتب الأولى، والخوف الأول، والإيمان الأول.

كان كاتبًا، لكن الكتابة لم تعد بالنسبة إليه مهنةً ولا موهبةً ولا طريقًا إلى الظهور. صارت عبئًا. صارت ثغرًا. صارت امتحانًا لا يُعلَن للناس، لكنه يُقام كل ليلةٍ بين الإنسان وربه، حين يكون قادرًا على أن يكتب ما ينجيه في السوق، أو يكتب ما يبرئه في الآخرة.

لم يكن سليم مشهورًا بالمعنى الذي تحبه المنصات، لكنه لم يكن مجهولًا تمامًا. كان له قرّاء يتتبعون نصوصه في الصحف والمواقع، ويحبون طريقته في الكتابة؛ تلك اللغة التي لا تكتفي بوصف الخراب، بل تحاول أن تكشف جذره،

ولا تكتفي بالبكاء على القيم، بل تسأل: من الذي باع الحراسة؟ من الذي نزل أولًا؟ ومن الذي أقنع الناس أن النزول عن موضع الطاعة نوعٌ من الحكمة؟

ولذلك صار اسمه مزعجًا لكثيرين.

لم يكن يصرخ، ولم يكن يسب، ولم يكن صاحب خطابٍ ناريٍّ يثير الغبار ثم يترك القارئ في العتمة، بل كان يكتب ببرودة الجراح العميقة؛ يضع إصبعه على موضع الألم، ثم يترك الحقيقة تعمل في القلب كما تعمل النار الهادئة في الحديد.

في تلك الليلة كان عليه أن يكتب مقاله الأخطر.

مقالٌ عن الذين بدّلوا مواقعهم، ثم سمّوا التبديل نضجًا.
عن الذين دخلوا الميدان حراسًا للمعنى، ثم خرجوا منه وكلاء للغنيمة.
عن الذين كانوا يقولون: لن نبرح، فلما لمعت لهم الدنيا قالوا: لم نُؤمر بالبقاء إلى الأبد.
عن أولئك الذين لا يخونون دفعةً واحدة، بل يهبطون من الجبل درجةً درجة، حتى إذا وصلوا إلى السفح قالوا للواقفين في الأعلى: أنتم متطرفون في ثباتكم، متأخرون عن فهم المرحلة، عاجزون عن قراءة الواقع.

كان عنوان المقال هو عنوان الرواية التي ستأكله لاحقًا، وإن لم يكن يعرف ذلك بعد.

نهض من مقعده، وسار إلى النافذة. كانت المدينة تحته مبلّلةً بضوءٍ شاحب، تتنفس تعبها مثل جسدٍ كبيرٍ أُنهك من الركض وراء وعودٍ لم تأتِ. على الجدار

المقابل كان ملصقٌ قديمٌ لندوةٍ ثقافيةٍ تمزق نصفه، وبقي من العبارة المطبوعة عليه: **الكلمة مسؤولية**.

ابتسم سليم بمرارة.

كم من الكلمات تُكتب عن المسؤولية بلا مسؤولية.
وكم من الناس يتحدثون عن الثبات وهم يتركون مواضعهم عند أول نداءٍ ناعم.
وكم من الجبال تتحول إلى ديكورٍ لغويٍّ في أفواه الذين لم يقفوا يومًا في الريح.

عاد إلى الطاولة. بجانب الحاسوب كان دفترٌ أسود صغير، ورثه عن أبيه. لم يكن فيه مال، ولا وثائق، ولا أسرار عائلية. كان فيه آياتٌ مختارة، وأحاديث، وجملٌ قصيرة تشبه المسامير. ومن بين تلك الجمل، كانت واحدة مكتوبة بخط أبيه المرتجف في الصفحة الأخيرة:

إذا أمرَك اللهُ أن تقف، فلا تجعل حركة الناس دليلًا على أن الموضع تغيّر.

تحتها كتب الأب بخط أصغر:

أكثر الهزائم تبدأ حين يظن الحارس أن المعركة انتهت.

أغلق سليم عينيه، فرأى أباه كما كان في آخر أيامه: جسدًا نحيلًا، وجهًا شاحبًا، عينين فيهما صفاء الذين أتعبتهم الحياة ولم تفسدهم. كان مستلقيًا على فراشٍ قريبٍ من النافذة، والضوء يدخل على وجهه كأنه يمسح عنه غبار المرض. لم يكن الأب خطيبًا، ولا عالمًا مشهورًا، ولا رجلًا له أتباع. كان مدرسًا قديمًا

للغة العربية، يقضي نهاره بين كتب الطلاب وأخطائهم، وليله بين المصحف ودفاتر لا يراها أحد.

وفي الليلة التي سبقت موته، طلب من سليم أن يقترب.

قال له بصوتٍ يكاد ينقطع:

ـ يا بني، ستكتب يومًا ما، وسيصفق لك بعضهم، وسيخاف منك بعضهم، وسيحاولون شراءك دون أن يقولوا لك إنهم يشترونك. سيقولون لك: نحن نقدّر قلمك، نريد فقط أن يكون خطابك أوسع، أهدأ، أقل حدّة، أكثر قبولًا. لا تعادِ الجميع. لا تقف وحدك. لا تكن حارسًا على جبلٍ تركه أهله.

ثم سكت طويلًا، كأن بينه وبين الكلام مسافةً من ألم.

قال سليم:

ـ وماذا أفعل يا أبي؟

فتح الأب عينيه بصعوبة، وقال:

ـ ابقَ حيث عرفت أن الله أقامك. لا تغيّر موضعك لأن الناس تغيّروا. ليس كل من نزل خائنًا في اللحظة الأولى، لكن كل نزولٍ عن أمرٍ معلومٍ يترك في القلب شقًّا، ثم يدخل الشيطان من ذلك الشق.

ثم أمسك يد ابنه، وأضاف:

ـ يا سليم، الغنيمة لا تبدأ مالًا دائمًا. أحيانًا تبدأ بتصفيق. احذر التصفيق إذا جاءك ثمنًا لصمتك.

بعد ساعات مات الأب.

وبقيت الجملة.

لم تبقَ كذكرى حنونة، بل كحجرٍ موضوعٍ على صدر سليم. كلما أراد أن يخفّف، ثقل الحجر. كلما أراد أن يساوم، لمع وجه أبيه من بعيد. كلما قال لنفسه إن الناس لا يحتملون الحقيقة كاملة، سمع الصوت القديم:

لا تنزل عن الجبل ولو رأيت الناس يجمعون الذهب.

في بداية حياته الكتابية، ظن سليم أن الأمر سهل. كان يكتب بنشوة الشاب الذي يكتشف قوته الأولى، ويظن أن الصدق وحده يكفي لحماية صاحبه. لم يكن يعرف أن الصدق يعرّي صاحبه أولًا، وأن الكلمة الصادقة لا تُدخلك دائمًا إلى قلوب الناس، بل قد تخرجك من مجالسهم، وتغلق في وجهك أبوابًا كثيرة، وتجعل اسمك ثقيلًا في قوائم الدعوات.

كان له ثلاثة أصدقاء يراهم أقرب الناس إلى روحه: عمار، وياسر، ونديم.

عمار كان شاعرًا، حادّ الوجه، سريع الانفعال، يؤمن أن الكلمة ينبغي أن تكون سهمًا لا وردة. كان إذا قرأ نصًا لسليم قال له: أنت تكتب كمن يضع الماء في النار، وأنا أريد النار بلا ماء.

أما ياسر فكان باحثًا هادئًا، شديد الذكاء، يعرف كيف يفكك الأفكار كما يفكك الصائغ حجرًا ثمينًا، لكنه كان يخاف الفوضى. كان يقول دائمًا: الحق يحتاج إلى سياسة، والحقيقة إذا قيلت بغير توقيتٍ قد تخسر أثرها.

وأما نديم فكان أجملهم حضورًا وأسرعهم صعودًا. له وجهٌ يطمئن إليه الناس، ولسانٌ يعرف كيف يعبر بين الضفاف دون أن يبتل. كان يقول لسليم: لا تكن صلبًا إلى حد الكسر. العالم لا يحترم الذين يخسرون دائمًا.

كانوا يلتقون كل خميسٍ في مقهى صغيرٍ عند طرف المدينة، يسمّونه بينهم: **مقهى الرماة**. لم يكن الاسم مكتوبًا على اللافتة، لكنهم أطلقوه عليه بعد ليلةٍ طويلةٍ تحدثوا فيها عن أُحد، وعن الرماة الذين أُمروا ألا يبرحوا، وعن تلك اللحظة العجيبة التي تتبدل فيها بوصلة الإنسان حين يرى الدنيا قريبة.

في تلك الليلة قال عمار، وهو يضرب الطاولة بيده:

ـ المشكلة ليست في الذين نزلوا، بل في الذين رأوا النزول ولم يفهموا أنه بداية الهزيمة.

قال ياسر:

ـ بل المشكلة في الذين ظنوا أن الأمر بالبقاء لا يحتاج إلى تجديد فهم. أحيانًا يتغير الميدان.

نظر إليه سليم وقال:

ـ لكن الأمر إذا كان واضحًا، فهل يتغير لأن المشهد تغيّر؟

تدخل نديم مبتسمًا:

ـ أنتم تحاكمون التاريخ وكأنكم كنتم هناك. لو كنتم على الجبل ورأيتم المعركة تنتهي، ربما نزلتم أيضًا.

ساد صمتٌ قصير.

قال سليم:

ـ لهذا أخاف من نفسي، لا من الذين نزلوا.

لم يفهم أصدقاؤه يومها عمق الجملة، أو فهموها ثم تجاوزوها. لكن سليمًا كان يعرف أن أول الصدق أن تتهم نفسك قبل أن تصنع من الثبات بطولةً لغوية. لم يكن يرى الرماة الذين تركوا موضعهم شخصياتٍ بعيدةً في كتاب سيرة، بل كان يراهم احتمالًا داخليًا في كل إنسان. وكان يعرف أن أضعف القراءات تلك التي تجعل الخطيئة دائمًا خارجنا، والهزيمة دائمًا في غيرنا، والفتنة دائمًا حادثةً وقعت لقومٍ مضوا.

ومع السنوات، بدأ المقهى يتغير.

لم يتغير الأثاث كثيرًا، ولا القهوة، ولا رائحة الخبز الخارج من المخبز المجاور، لكن الذين كانوا يجلسون حول الطاولة تغيروا. صار عمار أقل حضورًا، ثم اختفى في إحدى المدن البعيدة بعد أن تعب من المعارك الصغيرة. صار ياسر أكثر حذرًا، ثم صار مستشارًا ثقافيًا في مؤسسةٍ كبيرةٍ تموّل الندوات وتطلب من المتحدثين ألا يقتربوا من الأسئلة المؤلمة. أما نديم، فقد صعد بسرعةٍ مدهشة. صار يظهر في الشاشات، يبتسم بالابتسامة ذاتها، ويقول الجمل التي ترضي الجميع ولا تُلزم أحدًا بشيء.

بقي سليم في الغرفة الضيقة، يكتب.

لم يكن بقاؤه نقيًا كما يتخيل الآخرون. كان يمتلئ بالشك أحيانًا. يسأل نفسه: هل أنا ثابت، أم عاجز عن التكيف؟ هل أنا مخلص، أم أسير صورةٍ قديمةٍ عن نفسي؟ هل أحرس المعنى، أم أحرس كبريائي؟ كان يخاف أن تتحول الوصية إلى قناع، وأن يصير الجبل ذريعةً للعجز، وأن يلبس الخوف من التغيير ثوب الثبات.

لذلك كان يعود إلى القرآن كلما اختلطت عليه نفسه؛ لا ليبحث عن جملةٍ تؤيد مزاجه، بل ليقف عاريًا أمام الميزان. كان يقرأ قوله تعالى:

﴿مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا﴾

وكانت كلمة **وما بدلوا تبديلا** تقف في صدره كقاضٍ لا يقبل البلاغة عذرًا. لم تكن الآية عنده مديحًا بعيدًا لرجالٍ عظماء فحسب، بل سؤالًا يمتحن كل يومٍ صغير: هل بدّلت؟ هل غيّرت موضعك؟ هل بقيت على العهد حين لم يعد العهد مربحًا؟ هل ما زال اسمك الداخلي هو اسمك الأول، أم أنك صرت نسخةً محسنةً من خيانةٍ مؤدبة؟

في تلك الليلة، قبل أن يبدأ مقاله، وصلته رسالة من نديم.

فتحها ببطء.

كان نصها قصيرًا:

سليم، قرأت عنوان مقالك الذي سرّبته لأحد الأصدقاء. نصيحة أخيرة: لا تكتبه. المرحلة لا تحتمل هذا النوع من اللغة. هناك أبواب ستُغلق في وجهك.

ويمكن أن يكون لك مكان محترم لو أحسنت اختيار المعارك. لسنا على جبل الرماة يا صديقي. نحن في زمن أكثر تعقيدًا.

قرأ سليم الرسالة مرةً، ثم مرةً ثانية.

توقف عند الجملة الأخيرة طويلًا:

لسنا على جبل الرماة يا صديقي.

شعر كأن نديم لم يكتب له رسالة، بل أرسل إليه سهمًا من أسفل السفح.

جلس أمام الحاسوب. وضع أصابعه على لوحة المفاتيح. كان يستطيع أن يمحو العنوان. أن يؤجل المقال. أن يكتب عن موضوعٍ آمن. أن يستبدل الجرح بالتأمل العام، والاتهام بالسؤال، والحقيقة بالرمز البعيد. كان يستطيع أن يخرج من الليلة بلا خسائر.

لكن صوت أبيه جاءه من أقصى الذاكرة، لا عاليًا ولا حادًا، بل هادئًا كما تأتي الحقيقة حين لا تحتاج إلى صراخ:

أكثر الهزائم تبدأ حين يظن الحارس أن المعركة انتهت.

كتب سليم السطر الأول:

لم تكن مأساة أُحُد أن الرماة رأوا الغنيمة، فكل إنسانٍ يرى غنيمته يومًا ما؛ وإنما كانت المأساة أن بعضهم ظن أن الأمر النبوي انتهى لأن المشهد بدا من بعيدٍ كأنه انتهى.

ثم توقف.

لمعت عيناه قليلًا، لا بالبكاء الكامل، بل بذلك الندى الخفيف الذي يسبق القرار.

وأكمل:

وهكذا تُهزم المعاني في كل عصر: لا حين يهاجمها أعداؤها من الأمام، بل حين يترك حراسها مواضعهم من الخلف.

في الخارج، كانت المدينة تستعد لنومٍ جديد.
وفي الداخل، كان رجلٌ واحدٌ يوقّع بداية عزلته.

لكنه لم يكن يشعر أنه وحيد تمامًا.

كان هناك جبلٌ لا يراه أحد.
وكان هناك أبٌ ميتٌ لم تمت وصيته.
وكان هناك سهمٌ قديمٌ ينتظر يدًا لا ترتجف كثيرًا.
وكان هناك معنى، عارٍ ومكشوف، يحتاج إلى حارسٍ واحدٍ على الأقل.

رفع سليم رأسه، ونظر إلى العنوان مرةً أخرى.

ثم كتب تحته:

ما زلنا على جبل الرماة. لم نبرح أماكننا.

الفصل الثاني

المدينة التي بدّلت أسماءها

لم تكن المدينة خائنةً في أول أمرها.

كان هذا مما يؤلم سليم كلما حاول أن يكتب عنها؛ لأنها لم تولد قبيحة، ولم تخرج من رحم التاريخ وهي تحمل هذا الوجه المتعب الذي صارت تراه في المرايا، بل كانت في بداياتها تشبه وعدًا كبيرًا لم يكتمل، مدينةً صغيرةً بأحلامٍ واسعة، يختلط في أزقتها صوت الباعة بنداءات المؤذنين، ورائحة الخبز برائحة الورق القديم، ووجوه الفقراء بكرامةٍ صلبةٍ لا تعرف كيف تنحني إلا في الصلاة.

كان الناس فيها يتعبون، لكنهم لا يكذبون كثيرًا.
يخسرون، لكنهم لا يسمّون الخسارة نصرًا.
يختلفون، لكنهم كانوا يعرفون أن هناك خطًا أحمر لا ينبغي أن يُمسّ: أن لا يُباع المعنى، وأن لا تُستخدم اللغة لتغطية العار، وأن لا تُسمّى الخيانة اجتهادًا، ولا الجبن حكمة، ولا الغنيمة مصلحةً عامة.

ثم حدث شيءٌ لا يعرف أحدٌ متى بدأ على وجه الدقة.

لم تسقط المدينة في يومٍ واحد، ولم تستيقظ ذات صباحٍ فإذا بها مدينة أخرى. إن المدن لا تنهار كما تنهار الجدران، دفعةً واحدة، بصوتٍ عالٍ وغبارٍ كثيف؛ بل تنهار أحيانًا كما يبهت الحبر في كتابٍ قديم، حرفًا بعد حرف،

ومعنى بعد معنى، حتى يأتي يومٌ تقرأ فيه الصفحة فلا تجد العبارة التي كانت تضيء قلبك.

بدأ الأمر بتغيير الأسماء.

لم يعد الكذب كذبًا، صار **مناورةً إعلامية**.
ولم يعد الخوف خوفًا، صار **تقديرًا للمآلات**.
ولم تعد المداهنة مداهنة، صارت **لغةً جامعة**.
ولم يعد التخلي عن الثغر تخليًا، صار **انتقالًا إلى مساحة تأثيرٍ أوسع**.
ولم يعد الصمت عن الظلم صمتًا، صار **إدارةً رشيدةً للأولويات**.
ولم تعد الغنيمة غنيمة، صارت **فرصةً تاريخيةً لا يجوز تضييعها**.

وكان سليم يرى أن أخطر ما يصيب الأمم ليس أن تفعل القبيح، فالنفس البشرية قد تضعف، والإنسان قد يسقط ثم ينهض، ولكن الخطر أن تمنح القبيح اسمًا جميلًا، لأن الاسم إذا تغيّر تغيّر موضع الفعل في الضمير، وصار الذنب فكرةً قابلةً للنقاش، ثم صار اجتهادًا، ثم صار ذكاءً، ثم صار معيارًا يُحاكم إليه الثابتون.

كان يكتب في دفتره:

حين تعجز المدينة عن هزيمة الفضيلة، تبدأ بتغيير قاموسها.

وكانت مدينته قد بدأت هذا التغيير منذ زمن.

في الصباح التالي لنشر مقاله، استيقظ سليم على هاتفه يهتز بلا انقطاع. لم يكن ممن يستيقظون على التصفيق، ولا ممن ينامون على انتظار ردود

القراء، لكنه عرف من كثرة الرسائل أن المقال لم يمرّ كما تمرّ النصوص العادية. فتح النافذة أولًا، كعادته، ليدخل الهواء إلى الغرفة، ثم جلس على حافة السرير، وفتح هاتفه.

كانت الرسائل متباينةً كأنها خرجت من مدنٍ مختلفة لا من مدينةٍ واحدة.

كتب له قارئ مجهول:

لقد قلت ما نخاف أن نقوله.

وكتب آخر:

مقالك جميل، لكنه قاسٍ. ليس كل من غيّر موقفه نازلًا عن جبل الرماة.

وكتب ثالث:

أنت تحاكم الناس من برجٍ أخلاقي. الحياة أعقد من استعاراتك.

أما الرسالة التي توقّف عندها طويلًا فكانت من عمار، صديقه الشاعر الغائب منذ شهور:

قرأته. أصبتَ القلب. لكن انتبه، السهام لا تأتي دائمًا من جهة العدو.

ابتسم سليم حين قرأها. كان عمار يعرف طبع المدينة. يعرف أنها لا تغضب من الكلام الجميل، بل تغضب من الكلام الذي يكشف لها أن جمالها صار طلاءً فوق شقوقٍ عميقة. والمدينة، حين تضعف ذاكرتها الأخلاقية، لا تكره الباطل بقدر ما تكره المرآة.

نهض سليم، توضأ، وصلى ركعتين خفيفتين. لم يكن يفعل ذلك ليتظاهر بالطمأنينة، بل لأنه كان يعرف أن القلب إذا تُرك بعد الضجيج صار فريسةً سهلةً للغرور أو الخوف. والكاتب إذا مدحه الناس كثيرًا احتاج إلى صلاةٍ تنزله من وهمه، وإذا هاجموه احتاج إلى صلاةٍ ترفعه من اضطرابه.

بعد الصلاة، عاد إلى مكتبه.

كان على الطاولة كتاب السيرة الذي تركه مفتوحًا منذ الليلة الماضية. وقعت عيناه على الهامش الذي كتبه قبل سنوات:

أُحُد ليست درسًا في خطأ عسكري فقط، بل درسٌ في أن الأمر إذا نُسيَ في لحظة الغنيمة، صار الظهر مكشوفًا ولو كان الوجه منتصرًا.

ظل يحدّق في الجملة.
كانت المدينة كلها، في نظره، ظهرًا مكشوفًا.

لم تكن المشكلة في قلة الكلام عن القيم. على العكس، كان الكلام كثيرًا، والخطب كثيرة، والندوات كثيرة، والبرامج الثقافية كثيرة، والشعارات معلّقةً على الجدران كما تُعلّق الزينة في بيتٍ لا يسكنه أحد. المشكلة أن الحراسة غابت. كان هناك من يشرح المعنى، لكن قليلًا من يحرسه. من يزين الفضيلة بالعبارة كثيرون، لكن من يدفع ثمنها قليلون. ومن يمدح الجبل من بعيدٍ كثيرون، لكن من يبقى عليه حين تلمع الغنائم قليلون.

في ذلك اليوم، تلقى سليم دعوةً غريبة.

اتصلت به امرأة ذات صوتٍ مهنيٍّ رقيق، عرّفت نفسها بأنها مسؤولة البرامج في **مؤسسة أفق للثقافة والحوار**، وهي مؤسسة جديدة صعد اسمها مؤخرًا في المدينة، تُقيم الندوات، وتطبع الكتب، وتموّل الجوائز، وتستضيف الكتّاب في قاعاتٍ أنيقةٍ يغلب عليها الضوء الأبيض، وتعرف كيف تلتقط الصور من زوايا تجعل المثقف يبدو أعمق مما هو عليه.

قالت له:

ـ الأستاذ سليم، نتابع كتاباتك باهتمام، ونقدّر صوتك المختلف. نريد دعوتك إلى جلسة حوارية مغلقة مع عدد من الكتّاب. الموضوع: **مسؤولية الكلمة في زمن التحولات**.

صمت سليم قليلًا. كان عنوان الجلسة يشبه الفخ من فرط اتساعه.

قال:

ـ ومن المشاركون؟

ذكرت أسماءً يعرف أكثرها. كان بينها اسم نديم.

قالت المرأة:

ـ الأستاذ نديم هو من اقترح اسمك، في الحقيقة. قال إن وجودك ضروري حتى لا تبدو الجلسة ذات اتجاه واحد.

ضحك سليم في داخله.
كان نديم بارعًا في ترتيب المشاهد. يحب أن يبدو الجسر بين الجميع،

الرجل الذي لا يقطع خيطًا، ولا يترك نفسه خارج أي دائرة. كان قادرًا على أن يدعو خصمه ثم يبدو كريمًا، وأن يبتسم لمن يخالفه ثم يفرغ الخلاف من مضمونه، وأن يضع الجميع حول الطاولة نفسها حتى يثبت أن الطاولة أهم من الحقائق التي ماتت خارجها.

قال سليم:

ـ سأحضر.

لم يكن قراره نابعًا من رغبةٍ في المشاركة، بل من إحساسٍ أن المدينة تتهيأ لتقول له شيئًا، وأن عليه أن يسمعه من فمها مباشرة.

في المساء، ارتدى قميصًا أبيض وسترةً داكنة، وحمل دفتره الأسود، ونزل من بيته. كانت الشوارع مزدحمةً كعادتها، لكن سليم كان يشعر أن الوجوه تمشي في طبقات؛ طبقةٌ ظاهرة تبيع وتشتري وتضحك وتجادل، وطبقةٌ خفيةٌ تحمل الخوف القديم نفسه: الخوف من أن يقول الإنسان ما يعرف.

مرّ بجانب مكتبةٍ صغيرة كان أبوه يأخذه إليها في صغره. أُغلقت منذ سنوات، وحلّ محلها متجرٌ للهواتف. وقف لحظةً أمام الواجهة الزجاجية. كان المكان ذاته، لكن الروح تبدّلت. قال في نفسه:

ليست المأساة أن تختفي الكتب، بل أن لا يشعر أحد أن شيئًا اختفى.

واصل سيره حتى وصل إلى مبنى المؤسسة.

كان المبنى جديدًا، واجهته من الزجاج، وأمامه حارسٌ أنيق، وفي الداخل رائحة عطرٍ بارد، وسجادٌ رمادي، ولوحاتٌ تجريدية لا تقول شيئًا محددًا، لكنها توحي للداخل أن المكان متحضر بما يكفي ليخفّف من حدة أي يقين.

استقبلته المرأة نفسها بابتسامةٍ مدرّبة:

ـ أهلًا بالأستاذ سليم. حضورك يضيف للجلسة.

كان يعرف هذه الجملة.
كل مؤسسة تقول للكاتب إن حضوره يضيف، لكنها لا تخبره دائمًا ماذا تريد أن تحذف منه بعد أن يحضر.

دخل القاعة.

كان نديم واقفًا قرب النافذة، يحيط به ثلاثة شبان، يتحدث بنبرةٍ هادئةٍ عن ضرورة تجاوز الاستقطاب. حين رأى سليمًا، اتسعت ابتسامته، وتقدم نحوه بذراعين مفتوحتين.

ـ سليم! أخيرًا خرجت من غرفتك.

احتضنه بخفة، ثم همس في أذنه:

ـ أرجو أن تكون الليلة هادئًا. لا نريد أُحدًا أخرى داخل القاعة.

قال سليم بهدوء:

ـ أحيانًا تبدأ أُحد حين يطلب الناس من الرماة أن يكونوا هادئين.

ضحك نديم، لكنه لم يرتح.

جلسوا حول طاولةٍ مستديرة. كان الحضور عشرة: كتّاب، باحثون، إعلاميون، ووجهٌ رسميٌّ واحد لم يُعرّف عن نفسه بوضوح، لكنه لم يكن يحتاج إلى تعريف. كان حضوره كافيًا ليجعل بعض الجمل تولد ناقصة.

بدأت الجلسة بكلماتٍ ناعمة عن الحوار، والاختلاف، وضرورة حماية السلم الاجتماعي، وأن المثقف الحقيقي لا يصبّ الزيت على النار، وأن المرحلة تحتاج إلى عقلاء، لا إلى حرّاس أوهامٍ قديمة.

كان سليم يستمع ولا يكتب.

ثم جاء دور نديم.

قال بصوته الواثق:

ـ عندي تحفظ على استعارة جبل الرماة في سياقنا المعاصر. هي استعارة مؤثرة، نعم، لكنها قد تكون خطرة إذا تحولت إلى أداةٍ لتخوين كل انتقالٍ أو مراجعة. نحن لسنا في معركةٍ واحدة ذات أمرٍ واحدٍ واضح، بل في واقعٍ معقد. والثبات إذا لم يراجع نفسه قد يصير تصلبًا، كما أن الحركة إذا لم تضبط نفسها قد تصير خفة. لذلك نحتاج إلى لغةٍ أقل اتهامًا، وأكثر قدرةً على جمع الناس.

نظر بعض الحاضرين إلى سليم.

كان واضحًا أن الجملة موجهة إليه وإن لم يُذكر اسمه.

رفع سليم رأسه ببطء، وقال:

ـ كلام جميل.

استرخى بعضهم، ظنًا أن الجملة بداية تنازل.

ثم أكمل:

ـ لكن الجمال ليس دليلًا دائمًا على الصدق. أحيانًا تكون أخطر العبارات هي تلك التي تُقال بأكثر الأصوات تهذيبًا.

ساد صمت.

تابع سليم:

ـ أنا لا أخوّن المراجعة. المراجعة فضيلة حين تكون عودةً إلى الحق، لا هروبًا من كلفته. ولا أتهم الحركة. الحركة قد تكون واجبًا إذا تغير موضع التكليف. لكن السؤال الذي نهرب منه جميعًا هو: من الذي يملك حق إعلان انتهاء الأمر؟ هل يعلنه ضجيج الغنيمة؟ هل تعلنه رغبتنا في النجاة؟ هل يعلنه خوفنا من العزلة؟ أم يعلنه ميزانٌ أعلى من رغباتنا؟

قال أحد الحاضرين:

ـ لكنك تتحدث بلغةٍ مطلقة.

قال سليم:

ـ لأن هناك أشياء لا تنجو إذا جعلناها نسبيةً بالكامل. الصدق ليس مطلقًا بمعنى أنه يلغي الحكمة، لكنه إذا صار مرنًا إلى حد الذوبان، لم يعد صدقًا. والأمانة إذا تركت موضعها كلما تغيّر الجو، لم تعد أمانة. والثغر إذا صار قابلًا للتأجير، لم يعد ثغرًا.

تدخل نديم:

ـ ومن يحدد الثغر؟

قال سليم:

ـ هذا هو السؤال الحقيقي. لا يحدده مزاج الكاتب، ولا غضبه، ولا رغبته في البطولة. يحدده الوحي أولًا، ثم يحدده موضع البلاء الذي أقامك الله فيه. هناك إنسانٌ ثغره كلمة، وآخر ثغره علم، وآخر ثغره مالٌ حلال، وآخر ثغره بيتٌ يحفظه من الانهيار، وآخر ثغره ألا يشارك في تزييف الوعي. المشكلة لا تبدأ حين يختلف الناس في تحديد الثغر، بل حين يعرف الإنسان ثغره ثم يتركه.

مال الرجل الرسمي إلى الخلف، ووضع ساقًا فوق ساق.

قال بنبرةٍ باردة:

ـ وماذا عن مصلحة المجتمع؟ أليست أحيانًا فوق رغبة الكاتب في قول كل شيء؟

نظر إليه سليم.

كان السؤال مصقولًا جيدًا. يعرف صاحبه كيف يجعل القيد يبدو حرصًا، وكيف يجعل الصمت تضحيةً نبيلة.

قال سليم:

ـ مصلحة المجتمع لا تكون في أن ينام على عيوبه. قد لا نقول كل شيء في كل وقت، هذا صحيح. لكن هناك فرقًا بين تأجيل الكلمة لحكمة، ودفنها خوفًا. فرقٌ بين مراعاة المآلات، وصناعة المآلات لتبرير الصمت. فرقٌ بين أن تسكت لأن الكلام الآن يقتل بريئًا، وأن تسكت لأن الكلام يضرّ صورتك أو منصبك أو علاقتك بمن يوزع الغنائم.

لمعت عينا نديم، لكنه ظل مبتسمًا.

قال:

ـ أنت تجعل المسألة أخلاقية أكثر مما ينبغي.

قال سليم:

ـ بل أنتم تجعلونها إدارية أكثر مما تحتمل.

في تلك اللحظة، شعر سليم أن القاعة كلها انقسمت إلى جبلٍ وسفح. لم تكن الطاولة مستديرةً كما تبدو، بل كانت منحدرًا خفيًا؛ بعضهم جالسٌ في الأعلى، وبعضهم في الأسفل، وبعضهم يتظاهر أنه في المنتصف، مع أن المنتصف في لحظات الامتحان قد يكون اسمًا آخر للنزول البطيء.

لم يرفع أحد صوته.

لم تحدث مشاجرة.

لم تُكسر كأس.

لكن شيئًا ما انكسر في الجو.

بعد الجلسة، اقترب نديم من سليم عند الممر المؤدي إلى المصعد.

قال بصوتٍ منخفض:

ـ أنت تخسر نفسك.

قال سليم:

ـ أخاف أكثر أن أكسبها بثمنٍ لا أحتمله.

قال نديم:

ـ لا أحد يريد شراءك.

ابتسم سليم:

ـ الذين يشترون الأرواح لا يعلنون الأسعار.

تغير وجه نديم قليلًا.

قال:

ـ أنت تظلمنا.

قال سليم:

ـ ربما. وأنا أخاف من هذا. لكنني أخاف أيضًا أن أجاملكم حتى أظلم الحقيقة.

صمت نديم، ثم قال:

ـ المؤسسة تفكر في مشروع كبير للكتّاب الشباب. كتب، ندوات، منصات، جوائز. وجودك معنا سيحمي المشروع من التفاهة. لا تقف خارجه وتلعنه.

قال سليم:

ـ ومن قال إني ألعنه؟

ـ مقالك كله لعنة.

ـ لا. مقالي سؤال.

ـ بل سهم.

قال سليم:

ـ أحيانًا يحتاج السؤال أن يكون سهمًا كي يصل إلى الضمير.

تنهد نديم.

ـ سليم، لا تكن آخر رجل على الجبل. لا بطولة في أن تبقى وحدك.

نظر إليه سليم طويلًا. كان في وجه نديم شيءٌ من صديقٍ قديم لم يمت تمامًا، وشيءٌ من رجلٍ جديد لا يريد أن يعترف بما فقده. شعر سليم بحزنٍ مفاجئ؛

ليس غضبًا، ولا احتقارًا، بل حزنًا على ذلك الإنسان الذي كان يومًا يجلس في مقهى الرماة ويقول إن الكلمة لا تُباع، ثم صار يتحدث عن المنصات والجوائز والمشاريع الكبيرة، كأن المعنى لا يعيش إلا إذا حصل على تمويلٍ كريم.

قال سليم بهدوء:

ـ أخطر ما في النزول يا نديم، أنك بعد حينٍ لا تعود ترى الجبل من الأسفل كما كان يُرى من الأعلى.

لم يجب نديم.

فتح المصعد بابه، ودخل الاثنان، وبينهما صمتٌ أوسع من الطابق كله.

حين خرج سليم إلى الشارع، كانت الليلة قد ازدادت برودة. مرّت سيارةٌ فاخرة من أمامه، ثم اختفت عند المنعطف. على الرصيف المقابل، كان بائع شايٍ عجوز يجمع كراسيه البلاستيكية، وطفلٌ صغير يساعده في صمت. كان المشهد عاديًا، لكن سليم شعر أنه أكثر صدقًا من كل ما قيل في القاعة.

اقترب من البائع، طلب كوب شاي، ووقف يشربه تحت ضوء مصباحٍ أصفر.

قال البائع، دون أن يعرفه:

ـ البرد هذه الأيام يدخل العظم.

قال سليم:

ـ نعم. ليس برد الجو وحده.

نظر إليه العجوز، ثم هزّ رأسه كأنه فهم أكثر مما قيل.

عاد سليم إلى بيته مشيًا. لم يكن بعيدًا، لكنه أراد أن يمشي كي يترك الكلام يتصفى في داخله. كانت كلمات نديم تلاحقه: **لا تكن آخر رجل على الجبل.**

تذكر أباه.

تذكر دفتره الأسود.

تذكر مقهى الرماة.

تذكر عمارًا وهو يقول: السهام لا تأتي دائمًا من جهة العدو.

وحين وصل إلى باب البيت، وجد رسالةً ورقيةً صغيرةً مطويةً تحت الباب. انحنى، التقطها، فتحها.

كانت مكتوبةً بخط يدٍ لا يعرفه:

بعض الجبال لا يسقطها العدو. يسقطها تعب الحراس. لا تتعب.

لم يكن عليها اسم.

قرأها مرةً، ثم وضعها في دفتره الأسود.

في تلك الليلة، لم يكتب مقالًا جديدًا. جلس فقط أمام النافذة، ينظر إلى المدينة التي بدّلت أسماءها، ويسأل نفسه: كم بقي من الحراس؟ وكم منهم تعبوا دون أن يعلنوا نزولهم؟ وكم من الناس يحتاجون إلى كلمةٍ واحدةٍ لا لتقودهم إلى النصر، بل لتمنعهم من الانهيار؟

ثم خطر له أن الرواية التي كان يؤجلها منذ سنوات لم تعد فكرةً أدبية. صارت ضرورة.

فتح ملفًا جديدًا في حاسوبه.

كتب في الصفحة الأولى:

هذه ليست روايةً عن أُحُد. هذه روايةٌ عن كل مدينةٍ ظنّت أن المعركة انتهت، فتركت ظهرها مكشوفًا.

ثم أضاف:

إلى الذين بقوا في مواضعهم، لا لأنهم لم يروا الغنيمة، بل لأنهم تذكروا الأمر.

وبقي طويلًا ينظر إلى الإهداء.

كان يعرف أنه لم يبدأ روايةً فقط.

كان يفتح بابًا سيصعب إغلاقه.

الفصل الثالث

أصحاب الثغر

لم يكن أصحاب الثغر جماعةً منظمةً كما يتخيل الناس حين يسمعون لفظ الثغر، ولا كانوا يملكون مقرًا ولا لافتةً ولا بيانًا تأسيسيًا ولا حساباتٍ لامعةً على المنصات، بل كانوا في أول أمرهم أربعة شبانٍ يجمعهم مقهى صغير، وقلقٌ كبير، وشعورٌ مبكرٌ بأن المدينة لا ينقصها الكلام، بل ينقصها رجالٌ لا يجعلون الكلام قناعًا لغيابهم.

كان سليم يقول عنهم بعد سنوات:

لم نكن مشروعًا، كنا جرحًا يبحث عن لغة.

بدأ الأمر في مساءٍ بعيد، حين كان أبوه لا يزال حيًا، وحين كانت المدينة أقل قسوةً وأكثر قدرةً على احتمال الصادقين. كان سليم يومها في الخامسة والعشرين، يحمل في حقيبته كتبًا أكثر مما يحمل من نقود، ويكتب في صحيفةٍ محليةٍ صغيرةٍ مقالاتٍ لا يقرأها إلا قليلون، لكنها كانت تترك في نفسه ذلك الإحساس العجيب بأن الإنسان قد يكون فقيرًا ومؤثرًا في وقتٍ واحد، إذا بقيت الكلمة صادقةً في موضعها.

في ذلك المساء دخل المقهى هاربًا من مطرٍ مفاجئ، فوجد عمارًا يجادل صاحب المقهى حول بيتٍ من الشعر كتبه على منديل ورقي وعلّقه قرب ماكينة القهوة:

لا تُوقِظُوا في الناسِ أسئلةَ الهدى إن لم تكونوا للحقيقةِ موئلا

قال صاحب المقهى:
ـ يا أستاذ عمار، الناس يأتون هنا ليشربوا الشاي، لا ليحملوا همّ الأمة.

فأجابه عمار، وهو يمسح الماء عن شعره:
ـ ومن قال إن الشاي لا يصلح أن يكون بداية نهضة؟

ضحك سليم يومها من الجملة، لا لأنها مضحكة، بل لأن صاحبها كان يقولها بجديةٍ كاملة، كأن النهضات فعلًا قد تبدأ من كوب شايٍ وورقةٍ مبللةٍ ومنديلٍ عليه بيتٌ مرتبك الوزن، لكنه مستقيم النية.

جلس إلى جواره، وتعارفا. بعد ساعةٍ جاء ياسر، يحمل كتابًا في أصول الفقه، لا يرفع عينيه عنه إلا قليلًا، ويتكلم بهدوءٍ يشبه الماء إذا مرّ فوق حجرٍ أملس. ثم جاء نديم، أنيقًا كعادته، مبتسمًا كمن يعرف الطريق إلى كل باب، ودخل بينهم بلا استئذان، كأن المجلس كان ينتظره.

من تلك الليلة صار لهم موعدٌ أسبوعي.

لم يسمّوه مجلسًا، لأنهم كانوا يخافون من الأسماء الكبيرة.
ولم يسمّوه حلقة، لأنهم لم يكونوا طلاب علمٍ بالمعنى الاصطلاحي.
ولم يسمّوه ملتقى، لأن الكلمة كانت قد استُهلكت في النشرات الرسمية.
سمّوه ببساطة: **الخميس**.

كان الخميس عندهم أكثر من يوم. كان مهلةً صغيرةً من ضجيج الأسبوع، جزيرةً من الكلام النظيف في بحرٍ من المجاملات، بيتًا لا جدران له، ومرآةً يتفقد كل واحدٍ منهم فيها وجهه قبل أن تفسده الوجوه الأخرى.

كانوا يقرؤون، يختلفون، يتجادلون، يضحكون، ثم يعودون إلى بيوتهم وهم يشعرون أن شيئًا ما في داخلهم قد صار أمتن.

سليم كان يرى أن الكلمة أمانة.
عمار كان يراها معركة.
ياسر كان يراها ميزانًا.
نديم كان يراها جسرًا.

وكان اختلافهم في البداية نعمةً لا فتنة؛ لأن الجسر يحتاج إلى أمانة، والمعركة تحتاج إلى ميزان، والميزان يحتاج إلى حرارة، والأمانة تحتاج إلى من يعرف كيف يعبر بها إلى الناس. كانوا أربعة وجوهٍ لمعنى واحد قبل أن تصبح الوجوه أربعة طرقٍ متباعدة.

في إحدى أمسيات الخميس، جاء سليم بدفتر أبيه الأسود. وضعه على الطاولة كمن يضع مصحفًا صغيرًا من الذكريات، وقال:

ـ أبي يقول إن لكل إنسانٍ ثغرًا. ليس بالضرورة أن يكون الثغر ساحة قتال. قد يكون الثغر جملة، أو بيتًا، أو صدقًا في موضعٍ لا يراك فيه أحد.

قال عمار:
ـ وأنا ثغري أن أوقظ النائمين ولو رجموني بالأحذية.

قال ياسر:

ـ بل ثغرك أن لا توقظهم بطريقةٍ تجعلهم يكرهون اليقظة.

قال نديم ضاحكًا:

ـ وثغري أن أصالح بينكما قبل أن يطردنا صاحب المقهى.

لكن سليم لم يضحك كثيرًا. كان يقلب صفحات الدفتر، ثم قرأ لهم جملة أبيه:

أكثر الهزائم تبدأ حين يظن الحارس أن المعركة انتهت.

صمتوا.

لم يكن الصمت يومها ثقيلًا، بل كان صمتًا يشبه انحناء الرأس أمام معنى أكبر من أعمارهم. حتى عمار، الذي كان لا يطيق الفراغ بين الجمل، سكت كأنه وجد بيتًا شعريًا لا يجوز أن يعقّبه بشيء.

قال ياسر بعد قليل:

ـ هذه تصلح أن تكون قاعدة في فقه المواقف.

قال نديم:

ـ وتصلح أيضًا أن تُساء قراءتها. بعض الناس سيظلون في الموضع بعد أن ينتقل التكليف، ثم يسمّون عجزهم ثباتًا.

نظر إليه سليم، وقال:

ـ صحيح. لذلك لا بد أن يكون الثبات عبادةً لا عنادًا، وأن تكون الحركة طاعةً لا هروبًا.

قال عمار:

ـ إذن نحتاج إلى علامة.

قال ياسر:

ـ أي علامة؟

قال عمار:

ـ علامة نعرف بها أننا لم نتحول مع الوقت إلى خطباء عن المعنى لا حراسٍ له.

أخرج نديم قلمًا، وقال:

ـ اكتبوا إذن ميثاق الرماة.

ضحكوا جميعًا، لكن سليم أخذ العبارة بجدية. فتح صفحةً بيضاء من دفتره، وكتب في أعلاها:

ميثاق الرماة

ثم رفع رأسه:

ـ لا نريد ميثاقًا رسميًا. نريد جملًا قليلةً تخجلنا من أنفسنا إذا خنّاها.

قال ياسر:

ـ أول بند: لا نقدّم الغضب على العدل.

قال عمار:

ـ ولا نقدّم السلامة على الحق.

قال نديم:

ـ ولا نقدّم الحق بطريقةٍ تقتل أثره.

قال سليم:

ـ ولا نترك موضعًا علمنا أن الله أقامنا فيه طلبًا لغنيمةٍ عاجلة.

قال ياسر:

ـ ولا نسمي الخوف حكمةً إلا بعد أن نمتحنه أمام الله.

قال عمار:

ـ ولا نسمي الحكمة خوفًا كلما خالفت مزاجنا.

نظروا إليه بدهشة، فضحك وقال:

ـ نعم، أستطيع أن أكون منصفًا أحيانًا.

كتب سليم البنود، ثم أضاف من عنده:

ولا نبيع الكلمة بالمديح، فإن التصفيق قد يكون رشوةً مؤجلة.

هنا صمت نديم قليلًا، ثم قال:

ـ هذه قاسية.

قال سليم:

ـ لهذا يجب أن تُكتب.

لم يعرف أحدٌ منهم أن هذه الجملة بالذات ستعود بعد سنوات كأنها شاهدٌ على قبر الصداقة.

مرّت الأعوام الأولى وهم يظنون أن الميثاق يحميهم. والحقيقة أن الميثاق لا يحمي أحدًا بذاته؛ إنما يكشف له مسافة السقوط حين يبدأ بالنزول. كان الورق ساكنًا، أما النفوس فكانت تتحرك. وكان الثغر الذي بدا لهم في البداية واضحًا كالشمس، يتعرض كل عامٍ لضبابٍ جديد.

كان عمار أول من ابتلي بالفقر.

كتب قصائد كثيرة، ونصوصًا لم تنشرها الصحف لأنها «حادة»، كما قيل له. عمل مدرسًا، ثم ترك التعليم بعد خلافٍ مع مديرٍ طلب منه أن يحذف من حفل المدرسة فقرةً عن الكرامة «لأن الظرف لا يحتمل الحساسية». باع بعض كتبه، ثم باع ساعته، ثم اختفى أسابيع. وحين عاد إلى المقهى كان وجهه أقل غضبًا وأكثر تعبًا.

قال له سليم:

ـ أين كنت؟

قال عمار:

ـ أبحث عن مكانٍ لا يحتاج فيه الشاعر إلى إذنٍ كي يجوع.

ضحكوا، لكن ضحكتهم كانت مكسورة.

أما ياسر فابتُلي بالعقل. والعقل إذا انفصل عن حرارة العبادة قد يتحول من ميزانٍ للحق إلى جهازٍ بالغ الدقة لتبرير السلامة. لم يكن ياسر جبانًا، ولم يكن سيئًا، لكنه كان يراجع كل شيءٍ حتى يبرد. يخاف من الحماسة، يخاف من العبارات الكبرى، يخاف من أن يقود الوضوح إلى فتنة، ثم صار يخاف من الوضوح نفسه. كان يقول:

ـ لا بد من فقه المآلات.

وكان سليم يجيبه:

ـ نعم، لكن لا تجعل المآلات قبرًا للفريضة.

وكان ياسر يغضب:

ـ أنت تظن كل تريثٍ هروبًا.

فيقول سليم:

ـ وأنت تظن كل وضوحٍ تهورًا.

أما نديم، فكان ابتلاؤه أخطر: ابتُلي بالقبول.

فتح الله له باب الحضور بين الناس، أو هكذا بدا الأمر أولًا. دعوات، ندوات، لقاءات، مقالات في الصحف الكبرى، ثم شاشة، ثم مؤسسة، ثم سفر. كان يتحدث عن المعنى بلغةٍ جميلة، لكنه كلما صعد درجةً، نقصت من جملته شوكة. كان يسمي ذلك تهذيبًا، وكان سليم يسميه فقدانًا بطيئًا للحافة التي تمنع الكلمة من التحول إلى زينة.

في إحدى الليالي، قال له سليم في المقهى:

ـ أشعر أنك لم تعد تقول ما تؤمن به كاملًا.

قال نديم:

ـ ومن قال إن قول ما نؤمن به كاملًا فضيلة دائمًا؟

قال عمار:

ـ ها قد بدأنا.

قال نديم:

ـ لا تسخر يا عمار. الناس لا يحتاجون إلى من يصدمهم كل يوم. أحيانًا نكسب نصف المساحة، ثم نوسّعها.

قال سليم:

ـ ومتى تعرف أنك كسبت نصف المساحة، لا أنك خسرت نصف نفسك؟

لم يجب نديم.

كان ذلك أول شرخٍ ظاهر.

بعدها صار الخميس يتباعد. مرةً يعتذر نديم لسفر، ومرةً يعتذر ياسر لاجتماع، ومرةً يغيب عمار بلا سبب. ظل سليم يذهب أحيانًا وحده إلى المقهى، يجلس قرب النافذة، يطلب الشاي نفسه، ويفتح الدفتر الأسود. كان يشعر أن الطاولة الفارغة أصدق من كثيرٍ من الاجتماعات المكتملة؛ لأنها لا تدّعي ما لم يعد موجودًا.

وفي إحدى تلك الليالي، دخلت امرأةٌ شابة إلى المقهى تحمل حقيبةً مليئةً بالكتب، وسألت صاحب المقهى:

ـ هل يجلس هنا الأستاذ سليم بن ناصر؟

رفع سليم رأسه.

كانت في أواخر العشرينات، محجبةً بحشمةٍ هادئة، لا تكلّف فيها ولا ادعاء، عيناها فيهما يقظةُ من قرأ كثيرًا وتألم أكثر مما ينبغي. تقدمت نحوه، وقالت:

ـ أنا مريم. أعمل في مكتبة الجامعة. قرأت مقالك عن «الغنيمة التي تبدأ بتصفيق»، وأردت أن أشكرك.

قال سليم، مرتبكًا قليلًا:

ـ شكرًا لك. لكن كيف عرفتِ أنني هنا؟

ابتسمت:

ـ سألت عن الكاتب الذي لا يغيّر صورته الشخصية ولا يرد على الرسائل. قالوا لي: ستجدينه غالبًا في المقهى القديم قرب المخبز.

لم يعرف بماذا يجيب. أشار إلى المقعد، فجلست.

قالت مريم:

ـ مقالك آذاني.

نظر إليها بدهشة:

ـ آذاك؟

ـ نعم. لأنني وجدتني فيه. لا في موضع الثابتين، بل في موضع الذين تعبوا من الحراسة.

سكت سليم.

كان كثيرون يمدحون المقالات أو يهاجمونها، لكن قليلين يعترفون أنهم انكشفوا بها.

قالت:

ـ كنت أعمل على مشروعٍ في الجامعة لحفظ المخطوطات. بدأناه بنيةٍ صافية. ثم جاء التمويل، وجاءت الشروط، وجاءت اللغة الناعمة: احذفوا هذا، قدّموا هذا، لا تبرزوا هذا الجانب، اجعلوا التراث مادةً جماليةً لا هويةً حية. في

البداية قلنا: لا بأس، نحفظ شيئًا خيرٌ من أن نخسر كل شيء. ثم اكتشفت أننا لا نحفظ المخطوطات، بل نغسلها من روحها.

قال سليم:

ـ وماذا فعلتِ؟

نظرت إلى كوب الماء أمامها:

ـ استقلت.

قال:

ـ هذا ثمن كبير.

قالت:

ـ الثمن الأكبر أن أبقى، ثم لا أعود أعرف وجهي.

كانت العبارة بسيطة، لكنها دخلت صدر سليم كأنها خرجت من دفتر أبيه.

في تلك الليلة، تحدثا طويلًا. لم يكن الحديث عاطفيًا، ولا كان من تلك الحوارات التي تُصنع لتقريب البطل من امرأةٍ جميلةٍ في مسارٍ روائيٍّ متوقع. كان حديثًا عن الأمانة، وعن التراث، وعن كيف تتحول المؤسسات إلى مطاحن ناعمة تطحن المعاني دون ضجيج، وعن الفرق بين أن تخدم الفكرة وأن تستخدمها، وعن تعب الذين يريدون البقاء على الجبل لكن أكتافهم ليست من صخر.

قالت مريم:

ـ أتعرف ما الذي يخيفني؟

قال:

ـ ماذا؟

ـ أن يعتاد الإنسان التنازل حتى يصير صوته الداخلي غريبًا عليه. أن يسمع ضميره يومًا فلا يتعرف إليه.

قال سليم:

ـ الضمير لا يموت فجأة. يُنفى أولًا، ثم يضعف صوته من البعد.

قالت:

ـ وهل يعود؟

قال:

ـ يعود إذا وجد من يناديه باسمه القديم.

نظرت إليه، وقالت:

ـ إذن اكتب. ليس لأن الكتابة تغيّر كل شيء، بل لأنها أحيانًا تحفظ أسماءنا القديمة من الضياع.

منذ تلك الليلة، صارت مريم جزءًا من الثغر، وإن لم تدخل الميثاق القديم. لم تكن من أصحاب الخميس الأول، لكنها كانت من القلائل الذين فهموا أن الجبل ليس استعارةً أدبيةً يتكئ عليها الكاتب لتجميل نصوصه، بل موضعٌ شاق، تجرح حجارته القدمين، ويصيب برده العظام، ولا يكافئ الواقفين عليه دائمًا إلا بشيءٍ واحد: أن لا ينكسروا من الداخل.

كان سليم يعود من لقائه بها وفي قلبه طمأنينةٌ حذرة. لم تكن طمأنينة الحب الذي يبحث عن امتلاك، بل طمأنينة الرفقة النادرة، حين تجد إنسانًا لا يطلب منك أن تكون أخف، ولا يطلب منك أن تبرر حزنك، ولا يدهش إذا قلت له إنك تخاف، لأن الثابتين أيضًا يخافون.

وبمرور الوقت، صارت مريم تقرأ له قبل النشر. لا تمدحه كثيرًا، ولا تجامله. كانت تقول له أحيانًا:

ـ هنا ارتفعت لغتك فوق جرح الناس حتى كادت تنساهم.

أو تقول:

ـ هنا غضبت أكثر مما شهدت.

أو تقول:

ـ هنا قلت الحق، لكنك لم تترك بابًا للتائبين.

وكان يسمع منها ما لا يسمعه من غيرها؛ لأنها لا تريد ترويضه، بل تريد تصفية قصده.

في إحدى الليالي، أعطاها نسخةً من **ميثاق الرماة**. قرأته ببطء، ثم توقفت عند جملة:

ولا نبيع الكلمة بالمديح، فإن التصفيق قد يكون رشوةً مؤجلة.

قالت:

ـ من كتب هذه؟

قال:

ـ أنا.

قالت:

ـ إذن احذر منها أنت أولًا.

ابتسم:

ـ لهذا كتبتها.

قالت:

ـ لا. أحيانًا نكتب الجملة ونحن نظن أنها ستحرسنا، ثم تتحول إلى وسيلةٍ لنحاكم بها غيرنا. اجعلها مرآة، لا سيفًا.

أغلق سليم الدفتر ببطء.

كانت هذه أول مرةٍ يشعر فيها أن مريم لا تقف معه فقط، بل تقف أمامه حين يحتاج الأمر. وهذا، في زمن التصفيق، أندر من المحبة.

لكن المدينة لم تكن تترك الحراس يكبرون في صمت.

بعد شهرٍ من لقائهما الأول، أعلنت مؤسسة أفق عن مشروعها الجديد: **جائزة الكلمة المسؤولة**. كانت الجائزة كبيرة، واللجنة لامعة، والبيان مكتوبًا بلغةٍ ساحرة: «نحو خطابٍ ثقافيٍّ يتجاوز الانقسام، ويؤسس لمساحاتٍ مشتركة، ويحمي المجتمع من التطرف اللفظي، ويعيد الاعتبار للكلمة بوصفها جسرًا لا خندقًا».

قرأ سليم البيان، فعرف أن العبارة الأخيرة من قاموس نديم.

بعد ساعات، اتصل به نديم.

ـ سليم، نريدك في لجنة التحكيم.

قال سليم:

ـ أنا؟

ـ نعم. وجودك ضروري.

ـ أم وجود اسمي؟

صمت نديم لحظة.

ـ لا تبدأ بسوء الظن.

ـ لا أبدأ به. لكنني تعلمت أن أسأل مبكرًا حتى لا أندم متأخرًا.

قال نديم:

ـ الجائزة حقيقية. سنمنحها لأصواتٍ جيدة.

قال سليم:

ـ وما معنى الكلمة المسؤولة في تعريفكم؟

قال نديم:

ـ الكلمة التي لا تشعل الحرائق.

قال سليم:

ـ ومن يقرر الفرق بين النار التي تحرق، والنور الذي يؤلم عيون المعتادين على الظلام؟

تنهد نديم:

ـ أنت تجعل كل شيء معركة.

قال سليم:

ـ لا. أنا أخاف من الجوائز التي تبدأ بتكريم الكلمة وتنتهي بتأديبها.

قال نديم بحدةٍ خفيفة:

ـ أنت لا تثق بأحد.

قال سليم:

ـ بل أثق كثيرًا. لكنني لا أثق بالغنيمة حين تأتي إلى الحارس وتقول له: خذني، وسأبقيك في موضعك.

قال نديم:

ـ وهل ستظل تردد الجبل والغنيمة إلى آخر عمرك؟

قال سليم:

ـ لا. سأظل أفتش عنهما في كل صورةٍ جديدة، حتى لا يخدعاني بتغيير الثياب.

انتهت المكالمة ببرود.

لم يقبل سليم عضوية اللجنة. وفي الأسبوع التالي، نشر مقالًا دون أن يذكر المؤسسة باسمها، عنوانه:

حين تُؤدَّب الكلمة باسم المسؤولية

كان المقال شديدًا، لكنه عادل. فرّق فيه بين الكلمة المنضبطة بوحي التقوى، والكلمة المروّضة بمنطق السلطة. بين خطابٍ يراعي المآلات لأنه يخاف الله في الناس، وخطابٍ يدفن الحقيقة لأنه يخاف الناس على مصالحه. بين الكاتب الذي يراجع عبارته حتى لا يظلم، والكاتب الذي يحذف قلب عبارته حتى لا يُحرم من الدعوة القادمة.

اشتعلت المدينة.

لم يكن المقال طويلًا، لكنه وضع إصبعه على عصبٍ مكشوف. كتب البعض دفاعًا عنه، وكتب آخرون هجومًا عليه. أما المؤسسة، فلم ترد مباشرة. اكتفت بنشر صورةٍ لنديم مع مجموعةٍ من الكتّاب الشباب، وتحتها عبارة:

نحن نبني الجسور، ولا نلتفت إلى من يحفر الخنادق.

حين رأى سليم الصورة، شعر بشيءٍ يموت في داخله.

لم تكن العبارة موجعة لأنها هجوم. لقد هوجم كثيرًا. لكنها موجعة لأنها صدرت من صديقٍ يعرف أن بعض الخنادق ليست كراهيةً للجسور، بل حمايةٌ للمدينة من اقتحامٍ ناعم. وصديقٌ يعرف هذا ثم يتجاهله لا يجرحك من الخارج، بل يخلخل فيك ثقتك بالأيام التي عشتموها معًا.

في المساء ذهبت مريم إلى المقهى. وجدته جالسًا وحده، أمامه كوب شايٍ بارد.

قالت:

ـ قرأت المقال.

قال:

ـ وهل أخطأت؟

جلست، وأجابت بعد صمت:

ـ لم تخطئ في المعنى. لكنك تتألم أكثر مما تعترف.

قال:

ـ وهل هذا عيب؟

ـ ليس عيبًا. لكنه خطر. لأن الألم إذا لم يُهذّب قد يجعل الحق يبدو كأنه انتقام.

نظر إليها طويلًا، ثم قال:

ـ هل تريدين أن أصمت؟

قالت بهدوء:

ـ لا. أريدك أن تبقى على الجبل دون أن تتحول إلى حجر.

كانت الجملة قاسيةً في لطفها.

قال:

ـ وهل بقي في الناس من يستحق أن لا نتحجر؟

قالت:

ـ نعم. الذين لم نرهم بعد. الذين يقرؤونك في صمت. الذين لا يكتبون لك رسائل، لكنهم يتراجعون عن نزولٍ وشيك لأن جملةً واحدةً أمسكت بأيديهم. لا تجعل خيانة بعض الأصدقاء تحجب عنك أمانة الغرباء.

أطرق سليم.

كان يعرف أنها محقة. فالكاتب لا يكتب فقط لمن يصفق أو يعترض، بل يكتب لأولئك المجهولين الذين لا يظهرون في الضجيج، لكن الكلمة تصل إلى موضعٍ فيهم لا يعرفه الكاتب نفسه. وربما كانت أعظم آثار الكتابة تلك التي لا يعود خبرها إلى صاحبها.

في تلك اللحظة دخل عمار المقهى.

كان أنحف مما سبق، بلحيته غير المرتبة، ومعطفه القديم، وعينيه اللتين فيهما تعب الشعراء حين يكتشفون أن المجاز لا يدفع إيجار البيت. رأى سليمًا ومريم، فتوقف لحظة، ثم تقدم مبتسمًا:

ـ يبدو أن الثغر صار له حارسة جديدة.

ابتسمت مريم:

ـ بل شاهدة لا أكثر.

قال عمار وهو يجلس:

ـ الشهود أحيانًا أخطر من الحراس. الحارس قد ينام، أما الشاهد فيفضح النوم.

ضحك سليم لأول مرةٍ منذ أيام.

طلب عمار شايًا، ثم أخرج من جيبه ورقةً مطوية.

قال:

ـ كتبت شيئًا بعد مقالك.

فتح الورقة وقرأ:

على الجبلِ العالي وقفنا قليلًا فلمّا تلألأ تحتنا الوحلُ، سمّوه ذهبْ ونادى المنادي: انتهت حربكم فقلنا: ولكنْ ألم يأمرِ الصبحُ أن لا نغيبَ إذا الليلُ دبّ؟

سكت.

لم تكن الأبيات كاملة، لكنها كانت صادقة.

قال سليم:

ـ أين كنت يا عمار؟

قال عمار:

ـ في الأسفل قليلًا.

لم يضحك.

رفع سليم عينيه إليه.

قال عمار:

ـ نعم. نزلت. ليس إلى الغنيمة الكبيرة التي تتحدثون عنها. نزلت إلى تعبٍ صغير. قلت لنفسي: لا بأس أن أكتب نصوصًا خفيفةً لصفحةٍ تجارية. لا بأس أن أمدح من لا أؤمن به مقابل مبلغٍ يكفيني أسبوعين. لا بأس أن أؤجل المعركة حتى أتنفس. ثم اكتشفت أن الإنسان حين ينزل خطوةً لا يسمع صوت الحجارة تحت قدمه، لكنه يسمعه في قلبه.

قالت مريم برفق:

ـ وعدت؟

قال عمار:

ـ لا أعرف. أنا عند السفح ربما. لكنني سمعت سهم سليم، فرفعت رأسي.

لم يقل سليم شيئًا. كان يخاف أن يعظ صديقه فيكسر لحظة الصدق. مدّ يده ووضعها على كتف عمار.

قال فقط:

ـ الجبل لا يغلق طريق العودة.

قال عمار:

ـ لكن الواقفين عليه قد يفعلون.

قال سليم:

ـ لن نفعل.

كانت تلك الجملة بداية ميثاقٍ جديد لم يُكتب على الورق: أن الحراسة لا تعني احتقار النازلين، وأن الثبات لا يكتمل إلا إذا بقي في القلب بابٌ لمن يعود. فالرواية التي لا تعرف التوبة تتحول إلى محكمة، والمعنى الذي لا يرحم التعبى يصير سيفًا بلا قبلة.

في تلك الليلة، عاد ثلاثة من أصحاب الثغر إلى الطاولة: سليم، وعمار، ومريم. أما ياسر فكان غائبًا في حساباته، ونديم في صورته اللامعة، والمدينة في انحدارها الناعم.

لكن شيئًا ما تغيّر.

لم يعد الثغر ذكرى شبابيةً، ولا حماسةً أولى، ولا ميثاقًا مكتوبًا في دفتر. صار وجوهًا متعبةً تجلس في مقهى قديم، وتعترف أنها قد تتعب، وقد تخطئ، وقد تنزل، لكنها لا تريد أن تفقد اسم الجبل من ذاكرتها.

قالت مريم وهي تجمع كتبها:

ـ لعل أخطر ما يفعله الشيطان بالحارس ليس أن يدعوه إلى النزول فورًا، بل أن يقنعه أن تعبه دليلٌ على أن الجبل ليس موضعه.

قال عمار:

ـ أو يقنعه أن نزوله مؤقت، ثم يطيل المؤقت حتى يصير وطنًا.

قال سليم:

ـ أو يقنعه أن الذين بقوا أعداؤه، حتى لا يجرؤ على العودة.

صمتوا.

كانت الساعة تقترب من منتصف الليل، والمقهى يوشك أن يغلق. صاحب المقهى كان يمسح الطاولات، والمخبز المجاور أطفأ أنواره، والمدينة بدت للحظةٍ كأنها نامت على سرٍّ كبير.

نهضوا.

عند الباب، التفت سليم إلى الطاولة التي جمعتهم، فرأى عليها آثار أكوابٍ دائرية، وبقايا سكر، وورقة عمار المطوية، ودفتره الأسود.

شعر أن الثغر ليس دائمًا مكانًا عاليًا.
أحيانًا يكون طاولةً صغيرةً يجلس حولها من لم يوقّعوا استقالتهم من المعنى.
أحيانًا يكون اعترافًا: لقد نزلت قليلًا.
وأحيانًا يكون يدًا تمتد إلى النازل لا لتقول له: خنت، بل لتقول: الطريق إلى الأعلى ما زال يعرف قدميك.

وفي طريق عودته، كتب سليم في هاتفه جملةً سيضعها لاحقًا في روايته:

لم يكن أصحاب الثغر ملائكةً على جبلٍ من نور، بل بشرًا على حافة التعب؛ غير أن فضلهم أنهم كانوا كلما سقطوا تذكروا أن لهم موضعًا أعلى من سقوطهم.

ثم أضاف:

ليس الثابت من لا يرى الغنيمة، بل من يراها، وترتجف نفسه إليها، ثم يذكر الأمر.

الفصل الرابع

حين بدأت الغنائم تلمع

لم تكن الغنائم في المدينة تُحمل على ظهور الخيل، ولا تُجمع في ساحةٍ مكشوفةٍ بعد معركةٍ صريحة، ولا يراها الناس مكدّسةً كما رأى الرماة شيئًا من متاع الدنيا يلمع تحت السفح، بل كانت تأتي في زمن سليم خفيفةً، ناعمةً، معطرةً، تدخل من الأبواب التي لا تُثير الريبة، وتجلس في المجالس المحترمة، وتتكلم بلغةٍ راقيةٍ عن الفرص والتأثير وبناء الجسور وخدمة المشروع العام.

وكانت خطورتها أنها لا تُشبه الحرام في صورته الفجّة، ولا تأتي دائمًا مصحوبةً بأمرٍ صريحٍ بالخيانة، بل تأتي أحيانًا كأنها مكافأةٌ على الصبر، أو اعترافٌ متأخرٌ بالموهبة، أو بابٌ واسعٌ لنقل الكلمة من الهامش إلى المركز. وكان الإنسان، إذا لم يكن شديد الحراسة على قلبه، يستطيع أن يقول لنفسه: لعل هذا فتحٌ من الله، لعلها فرصةٌ لأخدم الحق من مكانٍ أعلى، لعل بقائي في الغرفة الضيقة نوعٌ من العناد، ولعل الجبل الذي أتحدث عنه لم يكن إلا اسمًا آخر لخوفي من الدخول إلى العالم.

كان سليم يخاف من هذا النوع من الأسئلة؛ لأنها ليست كاذبةً كلها.

فبعض الأبواب فتح، وبعض الفرص خير، وبعض العزلة مرض، وبعض الصرامة كبرياءٌ متنكرٌ في ثوب المبدأ. وكان يعرف أن من أسهل طرق الشيطان إلى أصحاب المعنى أن يجعلهم يظنون كل دعوةٍ إلى الاتساع تنازلًا،

وكل تعاملٍ مع الواقع سقوطًا، وكل مؤسسةٍ فخًا، فيبقون حيث هم لا لأن الله أقامهم، بل لأنهم عجزوا عن التمييز بين الثغر والسجن.

لهذا كان سليم يمتحن كل غنيمةٍ بسؤالين لا يكتبهما لأحد:

ماذا ستضيف إلى قدرتي على قول الحق؟ وماذا ستأخذ من حريتي في قوله؟

فإن وجد الباب يوسّع الكلمة ولا يشتري روحها، دخل.
وإن وجده يضع على الكلمة عطرًا ثم يسحب منها دمها، تراجع.

لكن الإنسان لا يعرف دائمًا عند الباب ما الذي ينتظره في الداخل.

في صباحٍ صافٍ، بعد أسبوعين من عودة عمار إلى مقهى الخميس، وصل إلى بريد سليم الإلكتروني خطابٌ رسميٌّ من جهةٍ ثقافيةٍ كبرى خارج المدينة، تدعوه إلى المشاركة في مؤتمرٍ دوليّ بعنوان:

الدين والإنسان المعاصر: نحو أخلاقٍ مشتركةٍ في عالمٍ متغير

كان الخطاب مكتوبًا بلغةٍ أنيقة، وفي آخره عرضٌ لا يمكن تجاهله: تذاكر سفر، إقامة في فندقٍ فاخر، مكافأة مالية كبيرة، ونشر ورقته في كتابٍ جماعيٍّ تُترجم نصوصه إلى لغاتٍ عدة.

قرأ سليم الرسالة مرتين.

كان الموضوع قريبًا من اهتمامه، والجهة ذات حضورٍ واسع، والمبلغ وحده يكفي لسداد ديونٍ تراكمت عليه منذ أشهر. لم يكن فقيرًا فقر الجائعين، لكنه كان يعيش على حافةٍ دقيقة: يكتب، يدرّس أحيانًا، يرفض أعمالًا كثيرة لا

يطمئن إليها، ويقيس احتياجاته بمسطرةٍ ضيقةٍ حتى لا يمد يده إلى ما يذل قلمه.

أغلق الحاسوب، ثم فتحه ثانية.

كان في الخطاب شرطٌ صغير، موضوعٌ في منتصف الفقرة الثالثة كإبرةٍ ناعمةٍ مخبأةٍ في قطنٍ أبيض:

نرجو أن تراعي الورقة الحساسية العالمية تجاه الخطابات القطعية، وأن تركّز على المشتركات الإنسانية بعيدًا عن النزعات الحصرية أو الادعاءات الامتلاكية للحقيقة.

لم تكن العبارة، في ظاهرها، مصادمةً تمامًا. من الذي يعارض الحديث عن المشتركات الإنسانية؟ ومن الذي يرفض أن تُصاغ الورقة بلغةٍ تراعي السامعين؟ لكن سليمًا توقف عند كلمتين: **الخطابات القطعية** والادعاءات **الامتلاكية للحقيقة**.

شعر أن هناك بابًا يريد أن يُفتح، لكنه ليس متأكدًا هل هو بابٌ إلى العالم أم فتحةٌ في ظهر الجبل.

اتصل بمريم.

قرأ عليها الخطاب كاملًا. ظلت صامتةً حتى انتهى.

قالت:

ـ ما الذي أزعجك تحديدًا؟

قال:

ـ لا أريد أن أكون ضيقًا. لكنهم لا يطلبون مني لغةً حكيمة فقط، بل يطلبون مني أن أتعامل مع اليقين كأنه مشكلة ذوقية.

قالت:

ـ هل تستطيع أن تكتب ورقةً تحفظ يقينك وتدخل بها إلى هذا السياق دون أن تظلمهم ودون أن تخون نفسك؟

سكت.

قالت:

ـ لا ترفض لأنك تخاف، ولا تقبل لأنك تحتاج. اكتب ملخص الورقة كما تؤمن بها، ثم أرسله. فإن قبلوا المعنى بوضوحه، فاذهب. وإن طلبوا منك أن تخلع روحه، فقد أجابوك.

كانت نصيحةً عادلة.

جلس سليم تلك الليلة وكتب ملخصًا بعنوان:

الحق والرحمة: كيف يمنح الوحي الأخلاقَ معناها دون أن يلغي المشترك الإنساني

كتب فيه أن الإسلام لا ينكر ما في الفطرة البشرية من قابليةٍ لمعرفة الخير، ولا يصادر إمكان التعاون الإنساني على العدل والرحمة، لكنه لا يذيب الوحي في أخلاقٍ عامةٍ بلا مصدر، ولا يجعل الحقيقة الدينية مجرد تجربةٍ شعوريةٍ

متساويةٍ مع كل ادعاء. كتب أن الرحمة لا تعني تعليق اليقين، وأن الحوار لا يشترط إلغاء الفارق، وأن احترام الإنسان لا يلزم منه تسوية الحق بالباطل.

أرسل الملخص.

وجاء الرد بعد يومين:

النص قوي ومهم، لكننا نقترح تخفيف بعض العبارات التي قد تُفهم بوصفها تقريرًا لتفوّق دينيّ مغلق. نرجو التركيز على الأفق الروحي المشترك، والابتعاد عن صياغات مثل: الوحي، الحق، الباطل، الهداية، المصدر الإلهي للأخلاق.

قرأ سليم الرد، وشعر أن الباب اتضح.

لم يغضب. لم يكتب منشورًا ساخرًا. لم يندفع إلى اتهام أحد. أغلق الرسالة بهدوء، ثم كتب اعتذارًا قصيرًا مهذبًا:

أشكركم على الدعوة الكريمة. لا أستطيع المشاركة بورقةٍ تفقد المصطلحات التي يقوم عليها معناها. أتمنى لمؤتمركم التوفيق.

قبل أن يضغط زر الإرسال، توقفت يده.

تذكر ديونه.
تذكر إيجار البيت.
تذكر حاسوبه القديم الذي صار يتعطل عند منتصف كل كتابة.
تذكر أمه التي تحتاج إلى دواءٍ لا يؤجَّل.
تذكر أن بعض الذين سيذهبون إلى المؤتمر أقل منه علمًا وصدقًا،

وسيعودون بصورٍ ومكانةٍ ومال.
وتذكر عبارة نديم: **لا تكن آخر رجلٍ على الجبل.**

ثم تذكر شيئًا آخر: وجه أبيه في الليلة الأخيرة.

ضغط زر الإرسال.

بعدها لم يشعر ببطولة.
شعر بالضيق.

وهذا ما كان يربكه في الطاعة: أنها لا تأتي دائمًا مصحوبةً بنشوة. أحيانًا تطيع وأنت حزين، وتترك ما لا يطمئن إليه قلبك وأنت محتاج، وتبقى على الجبل لا وأنت شامخٌ كتمثال، بل وأنت متعبٌ كإنسانٍ يتمنى لو كان الطريق إلى الله أقل كلفة.

في المساء، ذهب إلى المقهى. كان عمار هناك، يكتب شيئًا على هاتفه.

قال له سليم:

ـ رفضت المؤتمر.

رفع عمار رأسه:

ـ كم كانوا سيدفعون؟

ذكر له الرقم.

وضع عمار الهاتف على الطاولة، وقال:

ـ سامحك الله. كان بإمكانك أن تقبل ثم تنفق علينا.

ضحك سليم، لكنها ضحكةٌ قصيرة.

قال عمار:

ـ لماذا رفضت؟

قصّ عليه ما حدث.

صمت عمار، ثم قال:

ـ أحيانًا تكون الغنيمة مؤدبةً أكثر من اللازم. تدخل عليك وفي يدها بطاقة دعوة، لا سيف.

قال سليم:

ـ المشكلة أنني لم أفرح برفضي.

قال عمار:

ـ ومن قال إن الثبات فرحٌ دائم؟ أحيانًا الثبات أن تبقى وداخلك يصرخ: تعبت.

دخلت مريم بعد قليل، تحمل كيسًا صغيرًا. جلست، وأخرجت منه حاسوبًا مستعملًا.

قالت لسليم:

ـ هذا من مكتبة الجامعة. كانوا سيستغنون عنه. أصلحته لك.

نظر إليها مذهولًا.

ـ مريم، لا أستطيع...

قاطعته:

ـ تستطيع. ليس هديةً شخصيةً محرجة. اعتبره سهمًا جديدًا للحارس.

قال عمار:

ـ وأنا أتبرع بالشاحن إذا لم يعمل.

ضحكوا.

لكن سليم شعر أن الله، سبحانه، إذا أغلق على عبده بابًا اختلط فيه رزقٌ بشبهة تنازل، فتح له أحيانًا نافذةً صغيرةً لا تلمع كثيرًا، لكنها تكفيه ليواصل. لم يكن هذا قانونًا دنيويًا دائمًا، ولا وعدًا بأن كل رفضٍ سيعقبه تعويضٌ ظاهر، لكن تلك اللحظة علّمته أن الرزق لا يأتي دائمًا من الباب الأعرض، وأن بعض النعم تأتي متواضعةً حتى لا تجرح توحيد القلب.

غير أن الغنائم لم تقف عند بابه وحده.

كانت المدينة كلها تدخل موسم اللمعان.

جائزة الكلمة المسؤولة أعلنت قائمتها الطويلة. أسماء كثيرة، صور كثيرة، احتفاء كبير. كان اسم ياسر بين أعضاء اللجنة العلمية. واسم نديم في رئاسة المجلس الاستشاري. أما عمار، فلم يكن موجودًا إلا في الهامش، حيث كتب

أحدهم ساخرًا: «بعض الشعراء يفضّلون الجلوس في المقاهي وانتظار أن تأتيهم الأمة معتذرة».

غضب عمار، لكنه لم يرد.

قال لسليم:

ـ أحيانًا أتمنى لو كنت نديمًا. أعبر بسهولة. لا أتعثر بكرامتي عند كل باب.

قال سليم:

ـ لا تقل هذا.

قال عمار:

ـ بل أقوله. نحن لا نتعبد الله بادعاء أننا لا نشتهي ما عند الناس. أنا أشتهي. أشتهي أن أُدعى، أن أُقرأ، أن لا أظل أشرح لأمي لماذا لا يستطيع الشعر أن يشتري ثلاجةً جديدة.

قالت مريم:

ـ الاعتراف بالشهوة نصف النجاة منها.

قال عمار:

ـ والنصف الآخر؟

قالت:

ـ ألا تجعلها مفتي قلبك.

كان عمار يبتسم، لكن عينيه كانتا مبللتين بغضبٍ قديم. لم يكن غضبه من المال فقط، بل من الإحساس بأن العالم يعاقب الصادقين ببطء، ثم يطالبهم أن يظلوا مهذبين في ألمهم.

بعد أيام، حدث ما كان سليم يخشاه.

نشر عمار قصيدةً في صفحةٍ تابعةٍ لمؤسسة أفق. لم تكن قصيدةً سيئة، لكنها كانت مكسورة الروح. لا تشبهه. فيها مديحٌ ناعمٌ لمفردات المؤسسة: الجسور، المسؤولية، تجاوز الخنادق، الكلمة التي لا تجرح. قرأها سليم ثلاث مرات، ثم وضع الهاتف جانبًا.

لم يتصل به فورًا.

كان يعرف أن العتاب إذا جاء في لحظة الجرح قد يتحول إلى محاكمة. انتظر حتى المساء، ثم ذهب إلى المقهى. وجد عمار جالسًا في الزاوية، كأنه ينتظره ويهرب منه في آنٍ واحد.

قال سليم:

ـ قرأت القصيدة.

قال عمار بحدة:

ـ أعرف. وستقول إنها لا تشبهني.

جلس سليم.

ـ هل تشبهك؟

لم يجب عمار.

قال بعد قليل:

ـ دفعت لي المؤسسة مبلغًا جيدًا. جيدًا جدًا. كتبتها في ساعة. هل تريد الحقيقة؟ شعرت بالقرف، ثم شعرت بالراحة لأنني استطعت شراء دواء أمي.

سكت سليم.

كان الباب هنا أصعب. ليست كل غنيمةٍ تأتي من ترف. بعضها يأتي من حاجةٍ حقيقية، من أمٍ مريضة، من بيتٍ متعب، من شاعرٍ لم يعد يطيق أن يكون نبيًا صغيرًا في نظر أصدقائه وفقيرًا كبيرًا في نظر أهله.

قال سليم:

ـ لا أستطيع أن ألوم حاجتك.

رفع عمار رأسه:

ـ لكنك تلوم القصيدة.

قال سليم:

ـ نعم.

ضحك عمار بمرارة:

ـ كم أنت بارع في العدل المؤلم.

قال سليم:

ـ لو قلت لك إن القصيدة جميلة لخنتك. ولو قلت لك إن حاجتك لا تعنيني لظلمتك.

ضرب عمار الطاولة بيده:

ـ وماذا تريدني أن أفعل؟ أأترك أمي بلا دواء حتى يبقى ميثاق الرماة نظيفًا في دفترك؟

قال سليم بهدوء:

ـ لا. أريدنا أن نسأل: لماذا وصلنا إلى موضعٍ لا يجد فيه الشاعر الصادق دواء أمه إلا بمديح من لا يؤمن بهم؟ ثم نسأل: هل كان هناك بابٌ آخر؟ ثم نسأل: إذا اضطررت إلى عملٍ لا تحبه، هل يجب أن تمنحه روحك أيضًا؟

قال عمار:

ـ أنت لا تعرف الإذلال حين يأتي في صورة فاتورة.

قال سليم:

ـ أعرف بعضه. لا كله.

هدأ عمار قليلًا.

قال:

ـ أحيانًا أشعر أنك تحرس الجبل لأنك لم تجع بما يكفي.

كانت الجملة قاسية.

شعر سليم بها تدخل في موضعٍ حساس. أراد أن يدافع عن نفسه، أن يذكر رفض المؤتمر، والديون، وحاجة أمه، والليالي التي أكل فيها الخبز والشاي. لكنه صمت. ليس كل دفاعٍ عن النفس واجبًا، خصوصًا أمام صديقٍ يتكلم من جرحه.

قال فقط:

ـ ربما.

ارتبك عمار. كان يتوقع ردًا، لا هذا الهدوء.

قال سليم:

ـ وربما أنت تنزل لأنك تعبت، لا لأنك خنت. لكن التعب إذا لم نسمّه باسمه سيأتي غدًا باسمٍ أجمل، ثم يصير مذهبًا.

غطّى عمار وجهه بيديه.

قال بصوتٍ منخفض:

ـ لا أريد أن أصير نديمًا.

قال سليم:

ـ إذن لا تكذب على نفسك في أول الطريق.

طال الصمت بينهما.

في تلك الليلة لم يتصالحا تمامًا، لكنهما لم يفترقا. وهذا في الصداقات العميقة نصرٌ كبير: أن يبقى الباب مفتوحًا رغم الجرح.

أما نديم، فكان يلمع أكثر.

ظهر في مقابلةٍ تلفزيونيةٍ عن الجائزة. كان أنيقًا، واثقًا، محاطًا بديكورٍ أزرق ناعم. سأله المذيع عن الأصوات التي تنتقد المشروع وتتهمه بترويض الكلمة. ابتسم نديم وقال:

ـ هناك من يخلط بين الشجاعة والحدة، وبين الصدق وإيذاء المجال العام. نحن لا نريد كاتبًا منزوع المبدأ، بل كاتبًا يعرف أن الكلمة مسؤولية، وأن المجتمعات لا تُبنى بالعناوين الصدامية.

لم يذكر اسم سليم. لكنه لم يكن يحتاج.

في اليوم التالي، انهالت على سليم التعليقات: بعضها يدافع، وبعضها يسخر، وبعضها يقول له: «تعلم من نديم كيف تكون مؤثرًا بدل أن تظل غاضبًا في غرفتك».

قرأ سليم بعضها، ثم أغلق الهاتف.

لم يكن يتألم من السخرية. كان يتألم من أن اللغة التي صنعتها صداقاتهم الأولى صارت تُستخدم ضده. **الكلمة مسؤولية**، نعم. لكن من قال إن أول مسؤوليتها أن لا تزعج الذين رتّبوا الخراب بأناقة؟

في تلك الأيام، بدأت روايته تتشكل ببطء. لم يعد يكتب مقالات فقط. صار يدوّن مشاهد. رجلٌ يرفض مؤتمرًا. شاعرٌ يبيع قصيدةً لينقذ أمه. صديقٌ يلمع حتى لا يرى ظله. امرأةٌ تستقيل من مشروعٍ لأن المخطوطات لا تُحفظ إذا نُزعت روحها. مدينةٌ تبدل قاموسها حتى لا تشعر أنها تسقط.

وكان كلما كتب، شعر أنه لا يخترع الشخصيات، بل يلتقطها من الشارع قبل أن تبتلعها الأسماء الجديدة.

في منتصف الشهر، وصلت الغنيمة الأكبر.

لم تأتِ إليه، بل إلى مريم.

تلقت عرضًا من مؤسسة دولية تعمل في «إعادة تأهيل التراث الثقافي للمجتمعات المتأثرة بالنزاعات». منصب كبير، راتب ممتاز، سفر، صلاحيات، ومشروع ضخم لفهرسة آلاف المخطوطات. كان العرض مغريًا إلى حدٍ جعل سليم نفسه يفرح لها في البداية.

قالت له وهي تعرض الرسالة:

ـ هذا قد يكون الباب الذي حلمت به.

قرأ الشروط.

كان أكثرها مهنيًا. لكن في الملحق المنهجي، وجدت مريم بندًا يطلب «إعادة توصيف المواد التراثية ذات الحمولة الدينية بما ينسجم مع المعايير الثقافية المحايدة، وتجنب التصنيفات الإيمانية الداخلية لصالح توصيفات أنثروبولوجية عامة».

قالت مريم:

ـ يريدونني أن أتعامل مع كتب العلم الشرعي كأنها آثار قبيلةٍ منقرضة.

قال سليم:

ـ هل يمكن التفاوض؟

ـ ربما.

ـ فاوضي.

لم يقل لها ارفضي. لم يكن يريد أن يكون ضميرًا بديلًا عنها. الثغر لا يُحرس بالوصاية على قلوب الآخرين.

بعد أسبوعٍ من المراسلات، عادت مريم بوجهٍ شاحب.

قالت:

ـ وافقوا على تعديل بعض المصطلحات، لكنهم رفضوا الفكرة الأساسية. يريدون التراث بلا إيمان. يريدون الذاكرة بلا قبلة.

قال سليم:

ـ وماذا ستفعلين؟

قالت:

ـ لا أعرف.

كانت هذه أول مرةٍ يسمع منها هذه الجملة بهذا الانكسار.

جلسا في مكتبة الجامعة القديمة، بين رفوفٍ لا يزورها إلا القليل. كانت المخطوطات المصورة في الخزائن الزجاجية تبدو كأنها تنظر إليهما من زمنٍ بعيد. قالت مريم:

ـ تعبت يا سليم. أنت لا تعرف ماذا يعني أن تقف امرأةٌ وحدها كل مرةٍ أمام أبوابٍ كبيرة، ثم تعود لأنها لم تجد بابًا يدخل منه يقينها معها. أحيانًا أشعر أنني لا أرفض عروضًا، بل أرفض حياةً كاملة.

قال:

ـ أعرف بعض التعب، لا كله.

قالت:

ـ لا تقل لي ابقي على الجبل.

قال:

ـ لن أقول.

نظرت إليه.

قال:

ـ لأن الجملة إذا قيلت في وقتها الخطأ تصير حجرًا لا عونًا. سأقول فقط: لا تتخذي قرارك وأنتِ مبهورة، ولا وأنتِ مكسورة. انتظري حتى يعود صوتكِ الداخلي واضحًا.

قالت:

ـ وإذا عاد وقال لي اقبلي؟

قال:

ـ فاسأليه: أأقبل ومعي أمانتي، أم أقبل وأتركها عند الباب؟

أخفضت رأسها.

كانت مريم قوية، لكن القوة ليست أن لا يتعب الإنسان، بل أن لا يجعل التعب ربّه. وفي تلك اللحظة، رأى سليم أن الجبل ليس للرجال الذين يكتبون المقالات فقط، بل لكل روحٍ تريد أن تبقى أمينةً على ما تعرف، ولو كانت تقف في مكتبةٍ هادئةٍ أمام عقدٍ وظيفي لا يراه الناس.

بعد يومين، رفضت مريم العرض.

لم تخبر أحدًا إلا سليم. لم تكتب منشورًا. لم تصنع من رفضها فضيلةً معلنة. عادت إلى عملها البسيط في مكتبة الجامعة، ترتب الفهارس، وتصلح ما تستطيع إصلاحه، وتقول لنفسها إن الله لا يضيع من ترك شيئًا اتقاءً لما يفسد دينه وأمانته، وإن التعويض قد يكون سكينةً لا منصبًا.

لكن السكينة لا تُلغي الوجع.

وفي مساء الرفض، بكت.

لم يحاول سليم أن يعظها. جلس بجانبها في المقهى، وترك لها مساحة الحزن. كان يعرف أن بعض الدموع ليست اعتراضًا على القدر، بل غسلٌ للقلب من بريقٍ كاد يلتصق به.

قالت بعد أن هدأت:

ـ هل ترى كم هي جميلة؟

قال:

ـ ماذا؟

قالت:

ـ الغنيمة حين تأتي نظيفةً في الظاهر. لهذا كانت فتنة.

قال سليم:

ـ نعم. لو جاءت قبيحةً لانتهى الامتحان سريعًا.

قالت:

ـ أخاف أن يأتي يومٌ أندم فيه.

قال:

ـ قد تندمين ساعةً. لكنكِ ستنجين من ندمٍ أطول: أن تنجحي في ما لا يشبهك.

في آخر الليل، عاد سليم إلى غرفته وكتب:

ليست الغنيمة ما يأخذه الإنسان دائمًا، بل أحيانًا ما يوشك أن يصير به شخصًا آخر. وكل ما يجعلك تنجح خارج عهدك، هزيمةٌ وإن صفق الناس.

ثم كتب مشهدًا لروايته: امرأةٌ تقف أمام خزانة مخطوطات، تعرض عليها الدنيا أن تحفظ الورق وتترك الروح، فتختار أن تبقى فقيرةً في مكتبةٍ صغيرةٍ على أن تصير مديرةً لذاكرةٍ منزوعة القبلة.

في تلك الليلة، شعر سليم أن الرواية تكبر.

لم تعد عنه وحده.
ولا عن أبيه.
ولا عن نديم.
ولا عن أُحد.

صارت عن كل إنسانٍ وصلته غنيمته في الثوب الذي يحب، بالصوت الذي يطمئنه، بالحجة التي تناسب حاجته، ثم وقف لحظةً يسأل: هل هذا رزقٌ أم امتحان؟ هل هذا فتحٌ أم نزول؟ هل هذا بابٌ إلى خدمة المعنى أم بابٌ واسعٌ إلى تركه؟

وكان الجواب لا يأتي دائمًا مكتوبًا على الباب.

لذلك كان لا بد من قلبٍ حي.

وفي اليوم التالي، بينما كان سليم يراجع فصول روايته، وصلته رسالة جديدة من رقمٍ مجهول:

لن تستطيع أن تبقى طويلًا. كل جبلٍ له ثمن، وكل حارسٍ له حاجة.

قرأها، ولم يعرف هل هي تهديد أم نصيحة أم حقيقةٌ قاسية.

أغلق الهاتف، ونظر من النافذة.

كانت الشمس تميل إلى الغروب، والمدينة مغمورةً بضوءٍ ذهبيٍّ خادع، يجعل الجدران المتشققة تبدو أجمل مما هي عليه. قال في نفسه إن الغروب أيضًا يعرف كيف يجمّل الخراب، وإن الضوء إذا جاء من زاويةٍ معينةٍ قد يجعل السقوط مشهدًا رائعًا.

ثم فتح الدفتر الأسود، وكتب تحت جملة أبيه القديمة:

يا رب، لا تجعل حاجتي بابًا إلى خيانتي.

وبقي ينظر إلى الدعاء طويلًا.

كان يعرف أن الغنائم لم تبدأ إلا الآن.

الفصل الخامس

أوّلُ الذين نَزَلوا

لم يكن أوّلُ الذين نزلوا أكثرهم شرًّا، ولا أسرعهم إلى الخيانة، ولا أغلظهم قلبًا؛ بل كان، في كثيرٍ من الأحيان، أكثرهم قدرةً على تبرير نفسه، وأشدّهم معرفةً باللغة التي تجعل النزول يبدو صعودًا من نوعٍ آخر. وهذا، في نظر سليم، هو موضع الفتنة: أن الخيانة الفجّة لا تحتاج إلى ذكاءٍ كبيرٍ لتمييزها، أما الخيانة التي تمرّ من باب الحكمة، وتلبس ثوب التدرّج، وتضع على كتفها عباءة المصلحة، فهذه لا يكشفها إلا قلبٌ خائفٌ من نفسه قبل خوفه من الناس.

كان سليم يعرف أن الرواية لو أرادت أن تكون عادلةً، فلا يجوز أن تجعل النازلين شياطينَ كاملين، ولا الواقفين ملائكةً كاملين؛ لأن المعركة الأخطر لا تكون بين بياضٍ مطلقٍ وسوادٍ مطلق، بل بين إنسانٍ يعرف شيئًا من الحق، ويشتهي شيئًا من الدنيا، ثم يقف عند نقطةٍ رماديةٍ ويقول: سأخطو خطوةً واحدةً فقط.

وهكذا بدأ نديم.

لم يبدأ خائنًا.

كان في أول شبابه أكثرهم لطفًا، وأوسعهم قدرةً على الإصغاء، وأشدّهم حرصًا على أن لا يتحول الحق إلى قسوةٍ لا تعرف وجوه الناس. كان إذا احتدّ عمار، قال له: لا تجعل السهم يقتل من تريد إيقاظه. وإذا اندفع سليم في عبارةٍ

عالية، قال له: اترك للقارئ بابًا يدخل منه لا جدارًا يصطدم به. وإذا غرق ياسر في التحليل، قال له: لا تجعل الناس ينتظرون انتهاء المقدمة حتى يموتوا قبل النتيجة.

كان نديم نافعًا لهم.
وكانوا يحبونه.

وفي إحدى ليالي الخميس القديمة، يوم كان المطر يهطل على زجاج المقهى، قال نديم عبارةً حفظها سليم طويلًا:

ـ الحق الذي لا يعرف الطريق إلى الناس يبقى يتيمًا، ولو كان حقًا.

أعجب سليم بالجملة يومها، وكتبها في دفتره. لم يكن يعرف أن الجمل الجميلة قد تصير بعد سنواتٍ سكينًا في يد صاحبها، لا لأنها كاذبة، بل لأنها تُستعمل خارج تقواها الأولى.

فنديم لم يكن يكره الحق.
كان يكره الخسارة.

وهناك فرقٌ دقيقٌ، لكنه مع الزمن يصير هاويةً. فالذي يكره الحق يخاصمك منذ البداية، أما الذي يحب الحق بشرط أن لا يكلّفه كثيرًا، فإنه يظل معك في أول الطريق، ثم يتأخر قليلًا، ثم يقول لك: سر أنت، وسألحق بك، ثم ينشغل بترتيب عذرٍ مريحٍ لبقائه في الخلف، ثم إذا طال الفرق بينكما، اتهمك بأنك أسرعت أكثر مما ينبغي.

بدأ نزوله يوم دُعي إلى برنامجٍ تلفزيونيٍّ مشهور.

كان ذلك قبل سنواتٍ من جائزة الكلمة المسؤولة، وقبل مؤسسة أفق، وقبل أن يصير له مكتبٌ زجاجيٌّ وبطاقة تعريفٍ مطبوعةٌ بعناية. اتصل بسليم يومها فرحًا:

ـ أخيرًا، يا رجل. سأظهر الليلة في برنامج «مسارات الفكر». يريدون الحديث عن دور الشباب في تجديد الخطاب الثقافي.

قال سليم:

ـ جميل. قل ما تؤمن به.

ضحك نديم:

ـ طبعًا. لكن بطريقتي، لا بطريقتك الانتحارية.

لم يعلّق سليم.

في تلك الليلة اجتمعوا جميعًا في المقهى لمشاهدة الحلقة على هاتف عمار، لأن شاشة المقهى كانت تعرض مباراة كرة قدم وصاحب المقهى رفض أن يخسر الزبائن من أجل «مثقف يتكلم كثيرًا ولا يسجل أهدافًا».

ظهر نديم أنيقًا، هادئًا، متماسكًا. تحدث جيدًا في البداية عن أزمة المعنى، وعن ضرورة بناء الإنسان، وعن خطورة أن تتحول الثقافة إلى زينةٍ فوق خرابٍ داخلي. كان صوته مستقرًا، وكانت عباراته موزونة. شعر سليم بالفخر. قال في نفسه: ها هو واحدٌ منا يدخل إلى المكان الواسع دون أن يترك روحه عند الباب.

ثم جاء السؤال.

قال المذيع، بنبرةٍ مرتبةٍ سلفًا:

ـ هناك من يرى أن بعض الخطابات الدينية أو الأخلاقية القديمة لم تعد مناسبةً لعصرنا، وأن الإصرار على القطعيات يخلق توترًا في المجتمع. كيف ترى ذلك؟

كان السؤال حقل ألغامٍ ناعم.

توقع سليم أن يجيب نديم بحكمة، أن يفرق بين تجديد الخطاب وتفريغه، بين تنزيل الثوابت في الواقع وبين إذابتها في رضا الجمهور. لكنه رأى صديقه يبتسم ابتسامةً خفيفة، ثم يقول:

ـ أعتقد أن المشكلة ليست في القيم ذاتها، بل في الذين يتحدثون باسمها بلغةٍ مغلقة. نحن نحتاج إلى نقل القيم من منطق الحراسة إلى منطق المشاركة.

توقف سليم عند الكلمة: **الحراسة**.

لم تكن خاطئةً تمامًا، لكن في سياقها بدت كأنها تهمة. كأن الحارس عائق، وكأن الجبل حائط، وكأن الثغر مرضٌ في الخيال القديم يجب علاجه بمنطق المشاركة.

قال عمار وهو يحدّق في الشاشة:

ـ لماذا أشعر أنه يضربنا دون أن يسمينا؟

قال ياسر:

ـ لا تبالغ. الرجل يتحدث عن لغةٍ عامة.

قال سليم بصوتٍ منخفض:

ـ المشكلة تبدأ حين تصير اللغة العامة مخبأً للانسحاب الخاص.

أكمل نديم:

ـ لا يمكن أن نبني مجتمعًا معاصرًا بعقلية الخنادق. لا بد أن نتحرر من ثنائية الحارس والخائن، والثابت والنازل، لأن الحياة أعقد من ذلك.

أغلق عمار الهاتف.

قال:

ـ انتهى.

قال ياسر:

ـ أنت قاسٍ.

قال عمار:

ـ لا. أنا شاعر. أشمّ الخيانة قبل أن تُنجز نحوها الصحيح.

غضب ياسر:

ـ هذه ليست خيانة. هذا اختلاف في التعبير.

التفت عمار إلى سليم:

ـ قل شيئًا.

لكن سليم لم يقل. كان داخله يدافع عن نديم ويخاصمه في وقتٍ واحد. كان يعرف أن صديقه لم يبعهم في تلك اللحظة، لكنه ترك كلمةً صغيرةً في مكانٍ حساس. والكلمات الصغيرة إذا وضعت في المفاصل غيّرت اتجاه الجسد كله.

بعد الحلقة، جاء نديم إلى المقهى متحمسًا. كان قد تلقى عشرات الرسائل المادحة. مؤسسات تريد التعاون، وصحفيون يطلبون لقاءات، وشخصياتٌ نافذة أثنت على «اتزانه».

دخل مبتسمًا:

ـ ما رأيكم؟

قال ياسر:

ـ كنت جيدًا. متماسكًا.

قال عمار:

ـ كنتَ واسعًا جدًا حتى لم نجدك في اتساعك.

عبس نديم:

ـ ماذا تقصد؟

قال عمار:

ـ أقصد أنك دخلت باسمنا وخرجت باسمهم.

قال نديم بحدة:

ـ من هم؟ هذه لغة بدائية يا عمار.

تدخل سليم:

ـ لا نريد خصومة. لكن كلمة الحراسة في كلامك بدت كأنها مشكلة.

قال نديم:

ـ لأنها تصير مشكلة حين تتحول إلى وصاية.

قال سليم:

ـ نعم. لكن هناك حراسةً واجبة. حراسة المعنى من التزييف ليست وصاية.

قال نديم:

ـ ومن يحدد التزييف؟ أنت؟ عمار؟ ميثاق الرماة الذي كتبناه ونحن صغار؟

كانت هذه أول مرةٍ يسخر فيها نديم من الميثاق.

لم تكن سخريةً كبيرة، لكنه جرحٌ صغيرٌ في موضعٍ عميق. رأى سليم وجه عمار يتغير، ورأى ياسر ينظر إلى الطاولة كأنه يخاف أن يختار جهةً من جهات الصمت.

قال سليم:

ـ لا. لا أحد منا يملك الحق. لكننا نملك أن نخاف من أنفسنا حين يبدأ مديح الناس بتغيير قاموسنا.

رد نديم:

ـ وأنتم تملكون أيضًا أن تقتلوا كل فرصةٍ لأنها لا تشبه خيالكم الطاهر عن العالم.

ثم خرج.

لم يلحق به أحد.

كانت تلك الليلة أول نزولٍ واضح، لا لأنه قال عبارةً تلفزيونيةً قابلةً للتأويل، بل لأنه حين نُبّه إلى موضع الخلل غضب لا من الخلل، بل من الذين ذكّروه بما كان يقوله معهم.

بعدها توالت الخطوات.

دعوةٌ إلى ندوة.
ثم عضوية لجنة.
ثم مقالٌ في صحيفة كبيرة.
ثم لقاءٌ مع شخصية نافذة.
ثم مشروعٌ ثقافيٌّ يحتاج إلى «صوتٍ متزن».
ثم مكتب.

ثم فريق عمل.
ثم روزنامة مواعيد لا تتسع لمقهى الخميس.

وكان كل نزولٍ يأتي باسمٍ جميل.

الأول: **توسيع الأثر**.
الثاني: **الانتقال من الهامش إلى المركز**.
الثالث: **إدارة الاختلاف**.
الرابع: **حماية اللغة من الانفعال**.
الخامس: **بناء الجسور**.
السادس: **المشاركة في صناعة القرار**.
السابع: **تجاوز الرومانسية الأخلاقية**.

لم يكن في هذه الأسماء كلها باطلٌ كامل. وهذا ما جعل الأمر صعبًا. فالشيطان لا يحتاج دائمًا إلى صناعة كذبٍ صرف؛ يكفيه أن يأخذ نصف حقٍّ، ثم يجعله يخدم نصف هوى، ثم يترك الإنسان يظن أنه يمشي في النور لأنه لا يرى الظلام كاملًا.

في تلك الفترة، بدأ ياسر يقترب من نديم. لم يكن طمعًا في شيءٍ ظاهر، بل انجذابًا إلى لغةٍ تشبه عقله: هادئة، مركبة، مليئة بالتحفظات، تخاف من الأحكام النهائية. وكان نديم يعرف كيف يخاطب ياسر:

ـ نحن نحتاجك. لا تترك المساحة للسطحيين. وجودك في اللجنة يمنع الانحراف.

وهذه حجةٌ لها وجهٌ من الصدق، ولذلك قبلها ياسر.

أما عمار فكان يرى المسألة بحدةٍ مؤلمة:

ـ يريدون أن يجعلوك شاهد عدلٍ على صفقةٍ لا تعرف تفاصيلها.

قال ياسر:

ـ وأنت تريد أن يبقى كل عاقلٍ خارج المؤسسات، ثم نشكو أن المؤسسات في يد غير العقلاء.

قال عمار:

ـ ادخل، لكن لا تترك مفتاح روحك عند الباب.

قال ياسر:

ـ هذه استعارات لا تبني عملًا.

قال سليم:

ـ لكنها قد تمنع العمل من أكل صاحبه.

لم يقتنع ياسر.
ولم يمنعه أحد.

كان سليم يتعلم في تلك الأيام درسًا قاسيًا: لا تستطيع أن تحرس ثغر غيرك بدلًا عنه. تستطيع أن تنبه، أن تحب، أن تعاتب، أن تمد يدك، لكنك لا تستطيع أن تدخل إلى قلب إنسانٍ وتضع الحارس في موضعه. كل إنسانٍ له جبلٌ لا يصعده عنه أحد، وله سفحٌ لا يمنعه منه أحد إذا أصرّ على النزول.

وفي عامٍ واحد، تغيرت خريطة الأصدقاء.

نديم صار في المركز.
ياسر صار قريبًا منه.
عمار صار يتأرجح بين غضبٍ صادقٍ وحاجةٍ جارحة.
مريم صارت إلى جوار سليم، لا لتمنعه من الحزن، بل لتمنع الحزن من تحويله إلى قاضٍ لا يرحم.
وسليم ظل في غرفته، يكتب، ويراقب، ويخاف أن يكون هو أيضًا نازلًا بطريقةٍ لا يراها.

كان هذا الخوف يوقظه ليلًا.

يقوم، يتوضأ، يصلي ما شاء الله له أن يصلي، ثم يجلس أمام دفتره الأسود ويكتب أسئلةً لا يريها لأحد:

هل بقائي على الجبل طاعة أم صورة؟ هل غضبي لله أم لجرح كرامتي؟ هل أريد إنقاذ نديم أم إدانته؟ هل أحزن على المعنى أم على ضياع الصداقة؟ هل أكتب لأحرس أم لأنتقم؟

وكان لا يرضى عن نفسه بسهولة. فالكاتب الذي يحمل راية المعنى إذا لم يفتش في نواياه صار خطرًا على المعنى نفسه. قد يكتب عن الإخلاص وهو يشتهي إعجاب الصادقين، وقد يهاجم الغنيمة وهو يريد غنيمةً أنقى، وقد يفضح المتسلقين وهو يتسلق في خيالٍ آخر: خيال النقاء.

في إحدى الليالي، زار قبر أبيه.

كان القبر في طرف المدينة، بين قبورٍ متواضعةٍ تتشابه حتى كأن الموت يعلّم الأسماء أن تتخفف من غرورها. جلس سليم قريبًا من الشاهد الحجري، وقرأ ما تيسر من القرآن، ثم ظل صامتًا. لم يكن ممن يخاطبون الموتى بما لا يليق، لكنه كان يحتاج إلى أن يجلس في مكانٍ يتذكر فيه أن كل ضجيج المدينة سينتهي إلى هذا الصمت، وأن كل جائزةٍ ستسقط من يد صاحبها عند أول حفنة تراب، وأن كل مقالةٍ مهما اشتعلت ستبرد يومًا، ويبقى السؤال: هل كانت لله؟

قال في نفسه:

يا أبي، لقد بدأوا ينزلون.

ثم استدرك:

بل بدأنا ننكشف.

لأن نزول الآخرين لا يكشفهم وحدهم، بل يكشف الذين بقوا أيضًا: هل سيكبرون على من نزل؟ هل سيحوّلون الثبات إلى سُلطةٍ أخلاقية؟ هل سيحرسون الجبل أم يعبدون صورتهم وهم فوقه؟ هل سيبقون رحماء كما كانوا يوم كانوا جميعًا مهددين بالسقوط؟

عاد من المقبرة أكثر هدوءًا.

في اليوم التالي، اتصل بنديم.

لم يرد نديم أولًا. ثم أعاد الاتصال بعد ساعات.

ـ سليم؟ خير؟

كان صوته مهنيًا، كأنه يستقبل اتصالًا من كاتبٍ لا من صديقٍ قديم.

قال سليم:

ـ أريد أن أراك.

صمت نديم لحظة.

ـ عندي وقت بعد غد. في المؤسسة.

قال سليم:

ـ لا. في المقهى.

ـ المقهى؟

ـ نعم. الخميس.

ضحك نديم بخفة:

ـ أنت مصرّ على المتاحف.

قال سليم:

ـ وبعض المتاحف تحفظ ما لا تحفظه المؤسسات.

وافق نديم على مضض.

جاء الخميس.

جلس سليم مبكرًا في المقهى. كانت الطاولة نفسها، والخدوش نفسها، ورائحة الخبز نفسها. حضر عمار دون دعوة، كأنه شمّ رائحة معركة. ثم جاءت مريم، وجلست في طرف الطاولة. وبعد نصف ساعة، دخل نديم.

كان أنيقًا، يحمل هاتفين، وساعةً لامعة، وتعبًا مخفيًا تحت ابتسامته. نظر إلى المكان حوله وقال:

ـ لم يتغير شيء هنا.

قال عمار:

ـ لهذا نخاف أن ندعوك. قد تتذكر نفسك.

تجاهله نديم، وجلس.

قال سليم:

ـ دعوتك لا لأعاتبك.

قال نديم:

ـ غريب.

ـ دعوتك لأنني أفتقدك.

لم يكن نديم مستعدًا لهذه الجملة. ارتبك، وخفض عينيه إلى الطاولة.

تابع سليم:

ـ أفتقد الرجل الذي كان يقول إن الجسر لا يجوز أن يُبنى من عظام المعنى. أفتقد الذي كان يخفف حدتنا دون أن يطفئ نارنا. أفتقد الذي كان يعرف أن الحراسة ليست نقيض الرحمة. أفتقد صديقي، لا صورته.

سكت نديم طويلًا.

كان يمكن للمشهد أن ينفتح على اعتراف، لكن الإنسان حين يبتعد كثيرًا يخاف من أول خطوةٍ نحو العودة؛ لأنها ستكشف له طول الطريق الذي قطعه في الاتجاه الخاطئ.

قال نديم:

ـ أنت لا تفتقدني. أنت تفتقد نسخةً قديمةً مني تناسبت مع حاجتك إلى رفيقٍ في الهامش.

قال عمار:

ـ الهامش كان أنظف من مركزك.

قالت مريم بحزم:

ـ عمار.

صمت عمار.

قال نديم:

ـ أنتم لا تفهمون العالم. تظنون أن البقاء في مقهى قديمٍ فضيلة. أنا في موقعٍ أستطيع منه أن أساعد كتّابًا، أطبع كتبًا، أفتح مساحات، أمنع الأسوأ. ماذا تفعلون أنتم؟ تكتبون نصوصًا جميلةً عن الجبل، ثم تعودون إلى بيوتكم راضين عن نقائكم.

لم يرد سليم فورًا.

كانت في كلام نديم شظايا حقّ. نعم، هو يساعد بعض الكتّاب. نعم، يفتح مساحات. نعم، هناك أسوأ مما يفعله. وهذا ما جعل النزول ملتبسًا، وما جعل إدانته السهلة ظلمًا.

قال سليم:

ـ لا أنكر ما تفعل من خير. لكنني أسألك: هل ما زلت قادرًا أن تقول لا لمن فتح لك هذه المساحات؟

لم يجب.

قال سليم:

ـ هل تستطيع أن تنشر نصًا يفضح الجهة التي تمول مشروعك لو زيفت وعي الناس؟

ظل نديم صامتًا.

قال عمار:

ـ هل تستطيع أن تستضيف صوتًا لا يرضى عنه أصحاب القاعة؟

قالت مريم:

ـ هل تستطيع أن تعتذر عن جائزة إذا اكتشفت أنها تؤدب الكلمة أكثر مما تكرمها؟

اشتد وجه نديم.

ـ أنتم تحاكمونني بأسئلةٍ مثالية.

قال سليم:

ـ لا. نحاول أن نعرف إن كنت ما زلت على الجبل، أم صرت مديرًا أنيقًا للسفح.

وقف نديم فجأة.

ـ انتهى اللقاء.

قال سليم:

ـ لا تذهب غاضبًا.

قال نديم:

ـ بل سأذهب. لأنني اكتشفت أنكم لا تريدون صديقًا يعود، بل متهمًا يعترف.

قال سليم:

ـ لا. نريد صديقًا لا يكذب على نفسه.

نظر نديم إليه بعينين فيهما ألمٌ حقيقي.

ـ ومن قال إنك لا تكذب على نفسك يا سليم؟ من قال إنك لا تحتاج إلى بقائنا نازلين كي تبقى أنت عاليًا؟ من قال إن جبل الرماة عندك ليس خشبة مسرح تقف عليها وحدك؟

ثم خرج.

كانت الجملة كصفعة.

سكت الجميع.

حتى عمار لم يتكلم.

بقي سليم جامدًا، لكن داخله اضطرب. لم تكن الجملة كلها باطلة. وهذا ما آلمه. فالخصم حين يكذب عليك ترتاح إلى رفضه، لكن حين يمسّ موضعًا محتملًا في نفسك، يتركك مع ليلٍ طويل.

في تلك الليلة، عاد سليم إلى بيته، ولم يكتب. جلس أمام الصفحة البيضاء كمن وُضع أمام مرآةٍ قاسية. تردد صوت نديم في داخله:

من قال إن جبل الرماة عندك ليس خشبة مسرح؟

ظل يسأل نفسه حتى الفجر.

هل كان يستمد من سقوط الآخرين شعورًا خفيًا بالعلو؟
هل كان يحتاج إلى خيانة نديم كي تثبت روايته؟

هل صار الجبل في لغته أجمل من الجبل في قلبه؟
هل بقي لأن الأمر واضح، أم لأنه لم يعد يعرف من يكون إذا نزل؟

هذه الأسئلة لم تهدمه، لكنها عرّته. وكان التعري أمام الله رحمةً وإن آلم؛ لأنه يمنع الإنسان من عبادة صورته الصالحة. قام، توضأ، وصلى، ثم رفع يديه وقال:

اللهم إن كنتُ أحرس المعنى بكبرٍ فاكسر كبري، ولا تكسر المعنى في قلبي. وإن كنتُ أكتب عن الثبات لأنتصر لنفسي، فردّني إلى صدقٍ لا يراني فيه أحد.

بعد الصلاة، فتح روايته، وكتب فصلًا جديدًا عن أول الذين نزلوا. لم يجعله شيطانًا. جعله إنسانًا ذكيًا، لطيفًا، محبوبًا، بدأ بخطوةٍ لها وجهٌ من المعنى، ثم أحبّ اللمعان الذي جاءه بسببها، ثم صار يخاف أن يفقده، ثم صار يفسر خوفه بلغةٍ عالية، ثم صار يغضب من الذين يذكرونه باسمه الأول.

وكتب في نهاية الفصل:

لم ينزل لأنه كره الجبل، بل لأنه أحبّ أن يُرى من السفح وهو يتحدث عن الجبل. وربما كانت هذه أرقى صور النزول وأخفاها: أن تغادر موضع الحراسة، ثم تجعل من وصف الحراسة مهنةً لامعة.

وفي الصباح، وصلته رسالة من مريم:

لا تجعل جرح نديم يسرق رحمتك. ولا تجعل اتهامه لك يسرق يقظتك. أحيانًا يقول النازل كلمةً تكشف نقصًا في الواقف. خذ النور، واترك الطعن.

قرأها سليم مرارًا.

ثم كتب تحتها في دفتره:

الواقف على الجبل يحتاج إلى من يذكّره أن العلو المكاني لا يعني علو القلب.

وفي مساء ذلك اليوم، أعلن نديم في مؤتمرٍ صحفيٍّ كبير إطلاق مشروعه الجديد:

مرصد الخطاب المسؤول

وكان من أهدافه المعلنة: «رصد الخطابات المتشنجة التي تهدد السلم الثقافي وتغذي عقلية الخنادق والحراسة».

لم يُذكر اسم سليم.
لكن صورته كانت واضحةً في العنوان.

عندها عرف سليم أن النزول لم يعد خطوةً فردية.

لقد صار مشروعًا.

الفصل السادس

الجبل لا يُصفِّق لأحد

كان أصعب ما في الجبل أنه صامت.

لا يمدح الواقفين عليه، ولا يعتذر لهم عن برده، ولا يرسل إليهم كل صباحٍ شهادةً تثبت أنهم على حق، ولا يجعل الحجارة تحت أقدامهم ألين لأنهم أطاعوا، ولا يمنحهم امتيازًا ظاهرًا على الذين نزلوا إلى السفح، بل يتركهم في العراء، تحت الريح، في موضعٍ يرى الناسُ منه غنائمهم أكثر مما يرون معناه.

وهذا ما كان سليم يكتشفه يومًا بعد يوم: أن الثبات لا يصفّق لصاحبه.
بل ربما زاده وحدة.
وربما جعله موضع سخرية.
وربما فتح عليه أبواب مراجعةٍ لا تنتهي.
وربما رأى الذين نزلوا أوسع حضورًا، وأعلى صوتًا، وأكثر قدرةً على لمس الأشياء التي يحتاجها الإنسان في حياته اليومية: المال، المكانة، الأمان، العلاقات، الراحة، الشعور بأنه ليس منبوذًا.

أما الجبل، فلا يعطيك من هذا شيئًا مضمونًا.

يعطيك فقط موضعك.

وكان الموضع، أحيانًا، أثقل من المكافأة.

بعد إعلان نديم عن **مرصد الخطاب المسؤول**، تغيّر الهواء حول سليم. لم يقع شيءٌ صاخبٌ في البداية، فلم يُمنع من الكتابة، ولم تُغلق صفحته، ولم تُنشر ضده حملةٌ مباشرةٌ باسمه، لكن المدينة، كما عرفها، كانت تُحسن العقاب الناعم. لا تضربك في وجهك، بل تجعل الأبواب أبطأ في الفتح، والرسائل أقل حماسة، والدعوات أكثر ندرة، والأصدقاء أكثر حذرًا، والغرباء أكثر جرأةً في إساءة الظن.

صار اسمه يُذكر في المجالس بعباراتٍ مواربة:

ـ كاتب موهوب، لكن عنده حدّة.
ـ لغته جميلة، لكنه لم ينضج بعد.
ـ صادق، نعم، لكن الصدق وحده لا يكفي.
ـ عنده مشكلة مع المؤسسات.
ـ يعيش في ثنائية الرماة والغنائم، وهذا تبسيطٌ لا يليق بالواقع.
ـ يحتاج إلى أن يخرج من عزلته.

وكانت أكثر جملةٍ تؤلمه هي تلك التي تبدو بريئة:

خسارة، كان يمكن أن يكون له شأنٌ كبير.

كأن شأن الإنسان لا يكون كبيرًا إلا إذا رضي عنه الذين يملكون مقاييس الشأن.
كأن الكاتب إذا بقي أمينًا في غرفةٍ ضيقةٍ فقد خسر، وإذا صار ضيفًا دائمًا في القاعات فقد انتصر.

كأن الجبل، لأنه لا يملك منصةً ولا إضاءةً ولا صورًا، موضعٌ صغير، والسفح، لأنه مزدحم، قدرٌ واسع.

لم يكن سليم فوق التأثر بهذا كله.

كان يفتح هاتفه أحيانًا، يرى صورةً لنديم بين كتّاب شباب، أو مقطعًا قصيرًا من محاضرةٍ لياسر في قاعةٍ فاخرة، أو قصيدةً لعمار منشورةً في صفحةٍ لا تشبه روحه، فيشعر بشيءٍ صغيرٍ يتحرك في صدره. لم يكن حسدًا صريحًا، ولم يكن كراهية، بل ذلك الخليط البشري المعقد من الألم والوحدة والسؤال: هل أخطأت الطريق؟ هل صرت حارسًا لموضعٍ لم يعد أحد يحتاجه؟ هل يمكن أن يكون الجبل قد صار فارغًا، وأنا آخر من عرف؟

وكان إذا دخل عليه هذا الخاطر، خاف.

لا من السؤال نفسه، بل من أن يكون السؤال بداية تفاوضٍ خفيٍّ مع النزول.

في إحدى الليالي، انقطع الكهرباء عن الحي كله. أظلمت الغرفة، وسكت الحاسوب، وبقي سليم جالسًا أمام شاشةٍ سوداء تعكس وجهه على نحوٍ غريب. أشعل شمعةً صغيرة، ووضعها على الطاولة. كان الضوء ضعيفًا، لكنه كشف ما يكفي: دفتر أبيه، أوراق الرواية، كوب شايٍ بارد، وكتاب السيرة المفتوح على حادثة أُحد.

خارج النافذة، كانت المدينة غارقةً في عتمةٍ واسعة، لا يقطعها إلا ضوء مصابيح السيارات البعيدة. وفي ذلك الصمت، شعر سليم أن كل ما حوله قد انسحب: الضجيج، الهجوم، الدفاع، الرسائل، الندوات، حتى صور الأصدقاء. بقي وحده مع السؤال.

لماذا تكتب؟

سؤالٌ قصير، لكنه حين يأتي صادقًا يهدم مكتباتٍ كاملةً من التبرير.

لماذا تكتب يا سليم؟
لتنتصر؟
لتثبت أنك لم تنزل؟
لتردّ على نديم؟
لتحفظ وصية أبيك؟
لتكون صوت الذين لا صوت لهم؟
أم لأنك تخاف إن توقفت أن تكتشف أنك لا تملك شيئًا آخر؟

كانت الشمعة ترتجف. وكان ظلّه على الجدار يكبر ويصغر، كأن في الغرفة رجلين: سليم الذي يكتب عن الثبات، وسليم الذي يخاف أن يكون الثبات قد صار اسمه المستعار للعجز.

فتح الدفتر الأسود. قرأ جملة أبيه:

إذا أمرَك اللهُ أن تقف، فلا تجعل حركة الناس دليلًا على أن الموضع تغيّر.

ثم قرأ ما كتبه هو تحتها:

يا رب، لا تجعل حاجتي بابًا إلى خيانتي.

أضاف في تلك الليلة جملةً جديدة:

ولا تجعل ثباتي بابًا إلى كبريائي.

ثم أغلق الدفتر.

كان هذا هو الامتحان الذي لم يتحدث عنه كثيرًا: ليس فقط أن لا تنزل إلى الغنيمة، بل أن لا تجعل البقاء على الجبل غنيمةً أخرى. فكما قد يفتن الإنسان بالمال، قد يفتن بصورته وهو زاهد في المال. وكما قد يسكر بالمكانة، قد يسكر بأنه خارج لعبة المكانة. وكما قد يبيع قلمه ليرضى عنه أصحاب القاعات، قد يستعمل قلمه ليحتقر كل من دخل قاعةً أو حاول أن يعمل من داخل مؤسسة.

والشيطان لا يهمه شكل السقوط كثيرًا؛ يهمه أن تسقط.

في الصباح، جاءه اتصال من أمه.

كان صوتها متعبًا:

ـ يا سليم، هل أنت مشغول؟

قال:

ـ لا يا أمي. خير؟

ـ مررتُ اليوم على الصيدلية. الدواء ارتفع سعره.

سكت.

قالت بسرعة، كأنها تخاف أن تثقله:

ـ لا تقلق. بقي عندي قليل. فقط أخبرتك حتى تعرف.

قال:

ـ سأحضره لكِ اليوم.

أغلق الهاتف، وبقي واقفًا. فتح محفظته. لم يكن فيها ما يكفي. فتح حسابه البنكي في الهاتف. الرقم صغيرٌ إلى حدٍّ جارح. تذكر المؤتمر الذي رفضه، وتذكر أن مكافأته وحدها كانت تكفي أدوية أمه سنةً كاملة. حاول أن يطرد الخاطر، لكنه لم يستطع. لم يكن الخاطر يقول له: لقد أخطأت. كان يقول له فقط: انظر إلى الثمن.

الثمن لا يصنع الندم دائمًا، لكنه يشرح الامتحان.

خرج إلى الشارع. باع بعض كتبه القديمة في مكتبةٍ مستعملة. لم يبع كتب أبيه، ولا كتب السيرة والتفسير التي علّمت قلبه، لكنه باع دواوينَ وروايات وكتبًا كان يحبها. أخذ ثمنها، واشترى الدواء. حين خرج من الصيدلية، شعر بخفةٍ مؤلمة، كمن أنقذ شيئًا وفقد شيئًا في الوقت نفسه.

في الطريق إلى بيت أمه، مرّ قرب مبنى مؤسسة أفق. كانت على واجهته لافتة كبيرة لندوةٍ جديدة:

من أخلاق الحراسة إلى أخلاق المشاركة: نحو خطابٍ أقل توترًا

توقف لحظة.

كان اسم نديم في رأس القائمة. واسم ياسر متحدثًا ثانيًا.

شعر سليم أن العبارة لا تهاجمه فقط، بل تسرق مفرداته ثم تعيدها إلى الناس مقلوبة. صار الحارس متوترًا، وصارت المشاركة مرادفًا للاتساع، وصار الذي يرفض تذويب المعنى كأنه مريضٌ بالانغلاق. لم يغضب كما كان يغضب سابقًا. شعر بتعبٍ أعمق من الغضب.

قال في نفسه:

حتى الكلمات لها أسرى.

واصل طريقه إلى بيت أمه.

كانت أمه تسكن في بيتٍ صغيرٍ في حيٍّ قديم. فتحت له الباب بوجهٍ شاحبٍ وابتسامةٍ تحاول أن تخفي المرض كما تخفي الأمهات دموعهن عن أبنائهن. قبّل رأسها، وأعطاها الدواء. نظرت إلى الكيس، ثم إلى وجهه.

ـ من أين جئت بثمنه؟

قال:

ـ من رزق الله.

لم تكن ساذجة. عرفت أنه باع شيئًا. لكنها لم تسأل.

جلسا في غرفةٍ بسيطة، على الجدار صورة قديمة لأبيه، وعلى الرف مصحفٌ كبيرٌ كان الأب يقرأ فيه كل فجر. أعدّت له أمه شايًا، وجلست أمامه.

قالت:

ـ سمعت الناس يتكلمون عنك.

ابتسم:

ـ أي ناس؟

ـ الناس الذين لا عمل لهم إلا أن يتكلموا عن العاملين.

ضحك سليم رغم تعبه.

قالت:

ـ يقولون إنك قاسٍ.

ـ وربما أنا كذلك.

ـ لا تكن قاسيًا يا بني.

خفض رأسه.

قالت:

ـ أبوك كان شديدًا في الحق، لكنه لم يكن يحب أن يكسر الناس. كان يقول لي: الكلمة مثل الماء، إذا نزلت في موضعها أحيت، وإذا اندفعت بغير حكمة هدمت.

قال سليم:

ـ وأبي أيضًا كان يقول: لا تنزل عن الجبل.

قالت الأم:

ـ نعم. لكنه لم يقل لك: اكره الذين نزلوا.

لم يجب.

أكملت:

ـ يا بني، بعض الناس ينزلون لأنهم رأوا الذهب، وبعضهم ينزلون لأن أقدامهم نزفت، وبعضهم لا يعرفون أنهم نزلوا أصلًا. لا تجعلهم كلهم في سلةٍ واحدة. أنت كاتب، والكاتب إذا فقد الرحمة صار جلادًا بعباراتٍ جميلة.

كانت أمه لا تكتب، ولا تنظّر، ولا تحضر الندوات، لكنها قالت الجملة التي كان يحتاجها.

قال:

ـ أخاف أن أرحم حتى أميع.

قالت:

ـ وارحم دون أن تميع. أليس هذا هو الصعب؟ لو كان الحق بلا رحمة سهلًا، والرحمة بلا حق سهلة، فأين الامتحان؟

نظر إلى صورة أبيه.

كأنه سمع صوته في صوتها.

خرج من عندها قبل المغرب. كان في قلبه شيءٌ من السكينة وشيءٌ من الحزن. وبينما يسير في الزقاق، رأى صبيًا صغيرًا يحاول رفع صندوقٍ خشبيٍّ ثقيل. اقترب وساعده. قال الصبي:

ـ شكرًا يا عم.

ابتسم سليم. يا عم؟ متى صار عمًا؟ كان الزمن يصعد على كتفيه دون أن يستأذنه.

عاد إلى غرفته، فوجد رسالة من عمار:

أريد أن أراك. الأمر مهم.

ذهب إلى المقهى. وجد عمار في الخارج لا في الداخل، يمشي ذهابًا وإيابًا. كان وجهه مضطربًا.

قال سليم:

ـ ماذا حدث؟

قال عمار:

ـ عرضوا عليّ منصبًا في مرصد نديم.

توقف سليم.

ـ ماذا؟

ـ محررًا أدبيًا. راتب ثابت. تأمين لأمي. مكتب. وقالوا إنهم يريدون صوتًا حادًا من الداخل حتى لا يتحول المرصد إلى جهاز رقابة.

ضحك عمار ضحكةً قصيرةً بلا فرح.

ـ انظر كم هم أذكياء. يعرضون عليك القفص ويقولون لك: نحتاج جناحيك لتحسين التهوية.

قال سليم:

ـ وماذا قلت؟

ـ قلت أحتاج أن أفكر.

جلسا على الرصيف قرب المقهى. كانت السيارات تمر، والناس يدخلون ويخرجون، والحياة العادية تفعل فعلها الوقح قرب القرارات الثقيلة.

قال عمار:

ـ لا تقل لي ارفض.

قال سليم:

ـ لن أقول.

ـ ولا تقل لي اقبل.

ـ لن أقول.

ـ إذن لماذا دعوتك؟

قال سليم:

ـ لأنك لا تريد فتوى. تريد شاهدًا على صراعك.

غطى عمار وجهه بيده.

ـ أمي تحتاج إلى عملية. ليست دواءً هذه المرة. عملية. وأنا لا أملك شيئًا. لا أملك إلا كلماتٍ لا يشتريها أحد إلا إذا نزعتُ منها أنيابها.

قال سليم:

ـ هل اشترطوا عليك شيئًا؟

ـ لا. وهذا أسوأ. لم يشترطوا. فقط قالوا: نثق بحسك. وسأكون أنا من يراقب نفسي بنفسي حتى لا أخسر الثقة.

قال سليم:

ـ هذه أخطر رقابة.

قال عمار:

ـ أعرف. لكن العملية يا سليم.

كان صوته ينكسر.

هنا شعر سليم أن كل تنظيره عن الغنائم صار واقفًا أمام أمٍ مريضةٍ لا تنتظر المجاز. ما قيمة العبارات إذا عجزت عن لمس الجرح؟ وما معنى الثغر إذا صار الإنسان يرى أمه تتألم وهو يقول لها: اصبري، إن ابنك يحرس المعنى؟

قال سليم:

ـ كم تحتاج العملية؟

ذكر عمار رقمًا كبيرًا.

صمت سليم.

ثم قال:

ـ سنجمعه.

ضحك عمار بمرارة:

ـ من أين؟ من جبل الرماة؟ هل له صندوق دعم؟

قال سليم:

ـ لا أدري. لكن لا تتخذ قرارك الليلة. أعطني ثلاثة أيام.

قال عمار:

ـ ثلاثة أيام لن تغير العالم.

قال سليم:

ـ لكنها قد تمنعك من بيعةٍ مستعجلة.

غادر عمار وهو يهز رأسه، غير مقتنع، لكنه قبل المهلة.

في تلك الليلة، فعل سليم شيئًا كان يكرهه: كتب إلى بعض قرائه الموثوقين، لا منشورًا عامًا يستعرض فيه وجع صديقه، بل رسائل خاصة إلى من يعرف فيهم خيرًا. لم يذكر اسم عمار إلا لمن يلزم. قال إن هناك كاتبًا شريفًا يحتاج إلى مساعدةٍ عاجلة لعلاج أمه. كتب إلى طبيبٍ يعرفه، وإلى تاجرٍ قرأ له يومًا وقال: لو احتجت شيئًا فأخبرني، وإلى صديقٍ قديمٍ في جمعيةٍ خيرية.

لم ينم.

مع الفجر، جاءه الرد الأول: الطبيب سيخفض كلفة العملية.
ثم الثاني: الجمعية ستتكفل بجزء.
ثم الثالث: التاجر سيتكفل بالباقي بشرط أن لا يُذكر اسمه.

جلس سليم أمام الهاتف، وبكى.

لم يكن بكاءً كثيرًا. كان بكاء رجلٍ رأى فتحةً صغيرةً في جدارٍ ظنّه مصمتًا.

اتصل بعمار.

ـ العملية مدبرة.

لم يتكلم عمار.

قال سليم:

ـ هل تسمعني؟

جاء صوت عمار مبحوحًا:

ـ لا تكذب علي.

ـ لا أكذب.

طال الصمت، ثم سمع سليم بكاء صديقه، ذلك النوع من البكاء الذي لا يخرج من العين فقط، بل من كرامةٍ كانت تستعد أن تُباع لإنقاذ أمها، فجاءها الفرج قبل العقد.

قال عمار:

ـ كنت سأنزل يا سليم. كنت سأنزل هذه المرة بلا شعر.

قال سليم:

ـ أعرف.

ـ لو تأخرت ثلاثة أيام، كنت سأوقع.

قال سليم:

ـ لهذا لا ينبغي أن نترك الحراس وحدهم حتى يبيعوا حراستهم للدواء.

كانت هذه الجملة جديدة على سليم نفسه. أدرك فجأةً أن الحديث عن الثبات يبقى ناقصًا إذا لم نبنِ للثابتين أسبابًا تعينهم على الصبر. لا يكفي أن نقول للكاتب: لا تبع قلمك، ثم نتركه للجوع. لا يكفي أن نقول للعالم: لا تساوم، ثم

نتركه تحت رحمة الممولين. لا يكفي أن نقول للشاعر: لا تمدح الباطل، ثم نشاهد أمه تتألم ونصفق لقصيدته النقية.

الثغر لا يحرسه فردٌ وحيد.
الثغر يحتاج إلى أمةٍ تفهم أن الحارس إذا تُرك عاريًا، صار سقوطه مسؤوليةً مشتركة.

كتب سليم تلك الليلة في روايته:

ليست الغنيمة دائمًا دليل ضعف الحارس؛ أحيانًا تكون دليل خذلان الجماعة التي تركته وحيدًا حتى صار العرض المشبوه أرحم به من إخوانه.

بعد أيام، أُجريت العملية لأم عمار ونجحت.

عاد عمار إلى المقهى بوجهٍ جديد. لم تختفِ أزماته، ولم يتحول إلى قديس، لكنه صار أقل مرارة. جلس أمام سليم ومريم، وقال:

ـ كنت أظن أن الجبل مكانٌ يطلب مني أن أتحمل وحدي. الآن فهمت أنه موضعٌ يجب أن نتناوب على حراسته.

قالت مريم:

ـ أو نتناوب على حماية الحارس من نفسه ومن حاجته.

قال سليم:

ـ ومن وحدته.

لكن الهدوء لم يدم.

في مساءٍ قريب، نشر مرصد نديم تقريره الأول. كان عنوانه:

خطابات الحراسة ومخاطر إنتاج العزلة الثقافية

التقرير طويل، مصقول، مليء بالمصطلحات، لا يذكر أسماءً مباشرة، لكنه يضع نماذج لعباراتٍ مأخوذةٍ من مقالات سليم ومن قصائد عمار القديمة، ويصنفها ضمن «اللغة التعبوية التي تجعل من الاختلاف نزولًا أخلاقيًا، وتحول الموقف الثقافي إلى ثغرٍ مغلق».

قرأ سليم التقرير كاملًا.

كان ذكيًا. وهذا ما جعله أخطر. لم يكن مليئًا بالشتائم، بل بالتحليل. لم يكن يهاجمه، بل يؤطره. لم يكن يقول: هذا كاتب خطر. كان يقول: هذا النمط من الخطاب يحتاج إلى تفكيك. وكأنهم لم يريدوا إسكات صوته فقط، بل أرادوا أن يصنعوا حوله قفصًا مفاهيميًا، بحيث كلما تكلم قال الناس: ها هو خطاب الحراسة ينتج عزلته.

اتصلت مريم:

ـ هل قرأت؟

قال:

ـ نعم.

ـ ماذا ستفعل؟

ـ لا أدري.

ـ لا ترد الآن.

ـ لماذا؟

ـ لأنك موجوع. والوجع إذا كتب فورًا قد يعطيهم ما يريدون.

أغلق الهاتف.

جلس طويلًا.

كان في داخله ردٌّ عاصف. يستطيع أن يفضح التقرير، وأن يكشف عباراته، وأن يرد على نديم بنديمه القديم. لكنه تذكر كلام أمه: الكاتب إذا فقد الرحمة صار جلادًا بعباراتٍ جميلة. وتذكر كلام مريم: لا تجعل الألم انتقامًا. وتذكر دعاءه: لا تجعل ثباتي بابًا إلى كبريائي.

في تلك الليلة لم يكتب ردًا.

كتب فصلًا في الرواية عن الجبل الصامت.

كتب:

الجبل لا يصفق لأحد. من صعده طلبًا للتصفيق، سيكتشف أنه اختار المكان الخطأ. ومن بقي عليه لأنه لا يستطيع أن يخون الأمر، سيجد في صمته تربيةً لا يمنحها السفح لأحد. فالسفح مزدحمٌ بالأصوات، والجبل مزدحمٌ بالأسئلة؛ ومن لم يحتمل أسئلة الجبل، عاد إلى ضجيج السفح يظنه جوابًا.

ثم كتب:

ليس كل من على الجبل أعلى قلبًا ممن في السفح، وليس كل من في السفح خائنًا. لكن هناك موضعًا إذا علم الإنسان أنه موضعه، صار تركه سقوطًا ولو صعد بعده إلى أعلى المنابر.

وفي الصباح، لم ينشر ردًا، بل نشر فقرةً قصيرة:

ليست الحراسة عزلةً عن الناس، بل وفاءٌ للمعنى الذي يحفظ للناس إنسانيتهم. وليست المشاركة فضيلةً بذاتها حتى نعرف: مشاركةٌ في ماذا؟ ومع من؟ وعلى أي شرط؟ فقد ينعزل الإنسان صيانةً لحق، وقد يشارك تزيينًا لباطل. والميزان ليس في شكل الحركة، بل في صدق العهد.

انتشرت الفقرة سريعًا.

لكنها لم تكن صرخة. كانت ميزانًا.

وهذا أغضبهم أكثر.

لأن الصرخة يسهل اتهامها بالانفعال، أما الميزان فيحرج.

بعد الظهر، وصلت رسالة من رقم مجهول:

أنت تتعب نفسك. الجبل لا يحمي أحدًا.

قرأها سليم، ثم نظر إلى دفتر أبيه.

أجاب لأول مرة:

الجبل لا يحمي من الألم. يحمي من النزول بلا إذن.

لم يأتِ رد.

وفي المساء، ذهب إلى المقهى. وجد مريم وعمار ينتظرانه. كان عمار يقرأ التقرير مطبوعًا، وقد ملأ هوامشه بتعليقاتٍ غاضبة ورسوم سهام.

قال عمار:

ـ اسمح لي أن أكتب قصيدة تمزقهم.

قالت مريم:

ـ اكتبها، ثم لا تنشرها حتى يبرد دمك.

قال عمار:

ـ أنتِ ضد الشعر.

قالت:

ـ أنا ضد أن يتحول الشعر إلى طلقةٍ طائشة.

ضحك سليم.

جلس معهم، وشعر للمرة الأولى منذ أيام أن الجبل ليس صامتًا تمامًا. صحيح أنه لا يصفق، لكنه يمنحك أحيانًا رفقةً قليلةً تكفي لكي لا يبتلعك الصمت.

قال عمار:

ـ هل لاحظتم أنهم لم يعودوا يناقشون الفكرة؟ صاروا يناقشون نفسية من يقولها.

قالت مريم:

ـ هذه طريقة قديمة. حين تعجز عن إسقاط المعنى، حوّل صاحبه إلى حالةٍ مرضية.

قال سليم:

ـ أو إلى ظاهرةٍ تستحق الرصد.

قال عمار:

ـ مرصد الخطاب المسؤول! يا للروعة. قريبًا سيصدرون نشرة جوية عن احتمالات هبوب الضمير.

ضحكوا.

كان الضحك في تلك الليلة عبادةً خفية. لا لأنه نسيانٌ للمعركة، بل لأنه منع المعركة من سرقة إنسانيتهم. فالذين يحرسون المعنى يحتاجون أن يضحكوا أحيانًا، لا استخفافًا بالحق، بل رفضًا لأن تتحول الحراسة إلى عبوسٍ دائم.

وقبل أن يغادروا، قالت مريم:

ـ يجب أن نعيد كتابة ميثاق الرماة.

قال سليم:

ـ لماذا؟

ـ لأن الميثاق القديم كتبه شبابٌ يظنون أن أكبر خطر هو النزول إلى الغنيمة. أما الآن فقد عرفنا أن هناك أخطارًا أخرى: أن يبقى الحارس وحده، أن يقسو، أن يتكبر، أن يتعب، أن لا يجد ثمن دواء أمه، أن يحرس المعنى وينسى الإنسان.

قال عمار:

ـ أضيفوا بندًا: لا نترك شاعرًا جائعًا ثم نلومه إذا مدح من أطعمه.

قال سليم:

ـ هذه ليست بندًا. هذه صفعة.

قالت مريم:

ـ وربما نحتاجها.

فتح سليم دفتره، وكتب صفحةً جديدة:

ميثاق الرماة الثاني

ثم كتبوا معًا:

لا نترك مواضعنا طلبًا لغنيمة.

ولا نترك الواقفين معنا نهبًا للحاجة حتى تصير الغنيمة أرحم بهم منا.

لا نجعل الثبات قسوةً على التعبى.

ولا نجعل الرحمة ممرًا لتبرير النزول.

لا نستعمل الجبل منصةً لكبريائنا.

ولا نستعمل السفح عذرًا لخوفنا.

لا نغلق طريق العودة في وجه من نزل.

ولا نسمّي النزول صعودًا كي لا نشعر بالعار.

نحرس المعنى لأن الناس يستحقون نورًا لا لأننا نستحق أن نُرى حراسًا.

حين انتهوا، قرأ سليم البنود بصوتٍ منخفض.

كان الميثاق الثاني أقل حماسةً من الأول، لكنه أكثر نضجًا. الأول كُتب قبل الجراح. الثاني كُتب بعدها. والأفكار التي تعبر الألم تخرج أقل لمعانًا، لكنها أصلب معدنًا.

رفع عمار كوب الشاي وقال:

ـ على بركة الله. لكنني أقترح بندًا أخيرًا: من خان الميثاق يدفع ثمن الشاي أسبوعًا.

قالت مريم:

ـ هذا سيجعلنا أكثر التزامًا من كل البنود السابقة.

ضحكوا مرةً أخرى.

في تلك اللحظة، لمعت في قلب سليم جملةٌ لم يفهمها أولًا:

الجبل لا يصفق لأحد، لكنه يحفظ أصوات الذين لم يبيعوا نداءهم.

عاد إلى غرفته وكتبها في الرواية.

ثم أضاف:

وكان سليم قد تعلم أن الحارس لا يحتاج إلى تصفيق الجبل، بل يحتاج أن لا يسمع من داخله صوتًا يقول له: لقد تركت موضعك. فإذا نجا من هذا الصوت، كفاه ولو خسر ضجيج المدينة كله.

في آخر الليل، قبل أن ينام، وصلته رسالة من ياسر.

لم يكن ياسر قد كتب له منذ زمن.

الرسالة قصيرة:

هل يمكن أن نلتقي؟ أحتاج أن أتحدث معك بعيدًا عن نديم وبعيدًا عن عمار.

قرأها سليم، وشعر أن فصلًا جديدًا يُفتح.

أجاب:

غدًا. في أي مكان تختاره.

جاء الرد بعد دقيقة:

لا أريد مكانًا يرانا فيه أحد.

عندها عرف سليم أن الجبل لم يكن وحده في العتمة.

هناك من بدأ يشعر أن السفح، رغم أضوائه، لا ينام مطمئنًا.

الفصل السابع

لا تتركوا ظهوركم مكشوفة

اختار ياسر أن يلتقيا في مكتبةٍ مهجورةٍ عند أطراف المدينة.

لم تكن مكتبةً بالمعنى الحيّ للكلمة، بل بقايا مكتبة. بابٌ خشبيٌّ متآكل، ورفوفٌ انحنى بعضها تحت غبار السنوات، وكتبٌ فقدت قراءها كما يفقد الشجرُ عصافيره عند أوّل شتاءٍ طويل. كان صاحبها شيخًا هادئًا يعرف أبا سليم قديمًا، ثم كبر، وقلّت الحركة، وصارت المكتبة تفتح ساعاتٍ قليلةً كأنها لا تريد البيع، بل تريد أن لا تعترف بموتها.

حين وصل سليم، وجد ياسر واقفًا في الزاوية الخلفية، بين رفّين من كتب الفقه واللغة. كان يرتدي معطفًا رماديًا، ويحمل حقيبةً سوداء، ووجهه شاحبٌ على غير عادته. لم يكن في عينيه ذلك الهدوء التحليلي الذي اعتاده سليم، بل قلقٌ يحاول أن يتخفى خلف النظارة.

قال سليم:

ـ لماذا هنا؟

أجاب ياسر وهو ينظر حوله:

ـ لأن الكتب القديمة لا تبلّغ أحدًا.

كان في الجملة شيءٌ من السخرية، وشيءٌ من الخوف.

تقدم سليم، وصافحه. كانت يد ياسر باردة.

قال:

ـ ماذا حدث؟

لم يجب ياسر مباشرة. أخرج من حقيبته ملفًا أزرق، ووضعه على طاولةٍ صغيرةٍ قرب النافذة. ثم قال بصوتٍ منخفض:

ـ قرأت تقرير المرصد قبل نشره.

قال سليم:

ـ أعرف. اسمك في اللجنة العلمية.

هزّ ياسر رأسه:

ـ لا. ليس هذا ما أقصده. قرأت النسخة الأولى.

فتح الملف، وأخرج أوراقًا مطبوعة.

ـ النسخة التي نُشرت كانت مخففة.

نظر سليم إلى الأوراق، ثم إلى وجهه.

قال ياسر:

ـ النسخة الأولى كانت تذكر أسماء. اسمك، واسم عمار، وأسماء كتّاب آخرين. كانت تصنفكم ضمن ما يسمونه «النواة الصلبة لخطاب التعبئة الأخلاقية».

وفي التوصيات فقرةٌ تتحدث عن ضرورة «تقليل حضور هذه الأصوات في المنصات المؤثرة، ودعم بدائل أكثر اتزانًا».

سكت سليم.

لم يفاجأ تمامًا، لكنه شعر ببرودةٍ تصعد في ظهره. لم يكن الأمر إذن مجرد خلافٍ فكري، ولا جدلٍ حول مفاهيم، بل محاولةٌ منظمة لصناعة بدائل، وتضييق مساحات، وإعادة ترتيب الخريطة الأخلاقية للمدينة.

قال:

ـ ومن حذف الأسماء؟

قال ياسر:

ـ أنا.

توقف الهواء بينهما لحظة.

قال سليم:

ـ أنت؟

ـ نعم. اعترضت. قلت إن التقرير سيتحول إلى تصفية حسابات، وإن ذكر الأسماء سيهدم مصداقيته. وافق نديم بعد جدالٍ طويل.

قال سليم:

ـ ولماذا تخبرني الآن؟

أخفض ياسر عينيه.

ـ لأنني كنت أظن أنني أحمي شيئًا من الداخل. كنت أقول لنفسي: وجودي يمنع الأسوأ. ثم اكتشفت أن الأسوأ لا يُمنَع دائمًا بوجودك؛ أحيانًا يستعمل وجودك ليبدو أقل سوءًا.

كانت الجملة ثقيلة. خرجت منه كما يخرج اعترافٌ تأخر طويلًا.

جلس سليم على كرسيٍّ خشبيٍّ قديم. لم يفتح الملف. لم يكن مستعجلًا على رؤية طعنته مكتوبةً بلغةٍ منهجية.

قال:

ـ هل وقّعت على التقرير؟

قال ياسر:

ـ نعم.

ـ لماذا؟

مرر ياسر يده على وجهه.

ـ لأن النسخة النهائية لم تذكر أسماء. ولأنني قلت لنفسي إن فيها ملاحظاتٍ صحيحة عن بعض الخطابات. ولأنني خفت أن يقال إنني أتعصب لأصدقائي. ولأنني... لا أعرف. لأنني كنت قد دخلت بعيدًا بما يكفي لأخاف من الخروج.

كانت هذه آخر جملةٍ أراد سليم سماعها وأول جملةٍ تستحق أن تُسمع.

قال بهدوء:

ـ الخوف حين يُقال باسمه يبدأ يفقد بعض سلطته.

نظر إليه ياسر بامتنانٍ حذر. كان يتوقع إدانةً أعنف، لكنه وجد شيئًا آخر: ميزانًا مؤلمًا لا يسحق.

قال:

ـ لا تظن أن الأمر وقف عند التقرير.

ـ ماذا أيضًا؟

فتح ياسر الملف على صفحةٍ فيها جدولٌ طويل.

ـ هناك مشروع جديد. قائمة أصوات تُصنّف بحسب درجة «قابليتها للتعاون». ليس منعًا مباشرًا، ولا شيئًا يمكن الإمساك به قانونيًا. مجرد توصيات للجهات الشريكة: من يُدعى، من يُهمّش، من يُعاد تأهيله، من يُترك حتى يتعب.

قرأ سليم العبارة الأخيرة:

يُترك حتى يتعب.

شعر بها كسهمٍ لا يريد قتل الجسد، بل إنهاك الروح.

قال:

ـ هذه لغتهم؟

قال ياسر:

ـ في النسخة الداخلية، نعم.

ابتسم سليم ابتسامةً قصيرةً موجوعة.

ـ إذن فهموا الجبل جيدًا. لا يحتاجون إلى إسقاطه. يكفي أن يطيلوا الشتاء على الواقفين فوقه.

قال ياسر:

ـ أنا آسف.

لم يقلها كجملة اجتماعية. قالها كمن يضع شيئًا مكسورًا على الطاولة ويعترف أنه كان حاضرًا حين كُسر.

سأله سليم:

ـ هل نديم مقتنع بهذا؟

صمت ياسر طويلًا.

ـ نديم لم يعد يفرّق دائمًا بين حماية مشروعه وحماية الحقيقة. وهذه مرحلة خطرة. صار كل نقدٍ للمشروع تهديدًا للمعنى العام، وكل معارضٍ «حالة» يجب احتواؤها أو تقليل أثرها. هو لا يقول في نفسه: سأحارب سليمًا. يقول: سأحمي المجال من خطاب سليم. والفرق بين العبارتين هو المسافة التي يختبئ فيها الإنسان من ذنبه.

لم يجب سليم.

كان في قلبه حزنٌ أكثر من الغضب. نديم لم يعد مجرد صديقٍ نزل؛ صار يبني طريقًا واسعًا يدعو الناس إلى النزول عليه، ثم يضع عند مدخله لافتةً تقول: **هذا صعودٌ جديد**.

قال ياسر:

ـ سأستقيل.

رفع سليم رأسه.

ـ متى؟

ـ كتبت الرسالة. لكنني لم أرسلها بعد.

ـ لماذا؟

ـ أخاف.

قالها ببساطةٍ عارية.

ـ أخاف أن أخسر عملي، سمعتي، مساحتي. أخاف أن يقولوا إنني ضعفت أمام ضغطكم. أخاف أن أخرج فلا أجد مكانًا. وأخاف أكثر أن أبقى فلا أجد نفسي.

قال سليم:

ـ الخوف الثاني أحق أن يُخاف.

ابتسم ياسر بحزن:

ـ هكذا كنت ستقول.

ـ لا. هكذا تعلمت بعد أن خفت كثيرًا.

اقترب صاحب المكتبة منهما، ووضع كوبين من الشاي بصمت، ثم مضى. كان كأنه يعرف أن بعض اللقاءات تحتاج إلى شاهدٍ لا يتكلم.

قال ياسر:

ـ أتذكر ميثاق الرماة؟

ـ نعم.

ـ كنت أسخر منه في داخلي أحيانًا. أقول: شبابٌ جعلوا من حماستهم وثيقة. ثم اكتشفت أن الإنسان، حين يدخل الأماكن الملتبسة، يحتاج إلى جملةٍ قديمةٍ تخجله. الميثاق كان ساذجًا ربما، لكنه كان أنقى من كثيرٍ من الوثائق التي أكتبها الآن.

قال سليم:

ـ كتبنا ميثاقًا ثانيًا.

ـ أعرف. أرسلته لي مريم.

ابتسم سليم رغم جدية الموقف.

ـ مريم ترسل الميثاق للمنسحبين سرًا؟

قال ياسر:

ـ مريم تفعل ما لا تفعله خطبنا الطويلة. ترسل جملةً في وقتها.

ثم قال بعد صمت:

ـ أكثر بندٍ هزّني: «لا نترك الواقفين معنا نهبًا للحاجة حتى تصير الغنيمة أرحم بهم منا». أحسست أنه يتحدث عني أيضًا. ليست الحاجة مالًا فقط. أحيانًا الحاجة أن تبقى محترمًا في عين الوسط الذي دخلته. أن لا يقال إنك فشلت في الواقعية. أن لا تعود إلى أصدقائك ومعك اعترافٌ ثقيل.

قال سليم:

ـ العودة لا تكون خفيفة غالبًا.

قال ياسر:

ـ وهل تقبلونني؟

كان السؤال بسيطًا، لكنه كشف ما تحت الطبقات كلها. لم يكن ياسر يسأل عن مقعدٍ في المقهى، بل عن اسمه القديم: هل ما زال موجودًا في ذاكرة من أحبهم، أم أن النزول ألغاه؟

قال سليم:

ـ الجبل لا يغلق طريق العودة. قلناها لعمار من قبل، ونقولها لك.

قال ياسر:

ـ وماذا عن الظهر المكشوف؟

لم يفهم سليم.

أشار ياسر إلى الملف.

ـ هذا ما جئت لأقوله حقًا. التقرير ليس المشكلة الكبرى. المشكلة أنهم بدأوا يدرسونكم لا بوصفكم كتّابًا فقط، بل بوصفكم شبكة تأثير صغيرة. أنت، عمار، مريم، وبعض القراء الذين يتحركون حول نصوصك. لا يريدون إسكاتك مباشرة؛ يريدون عزل كل واحدٍ عن الآخر. جعل عمار يحتاج إليهم، جعل مريم تبدو متشددة مهنيًا، جعلك تبدو حالةً نفسية، وجعلي شاهدًا عاقلًا على ذلك كله.

ثم أضاف:

ـ يريدون ظهوركم مكشوفة.

في تلك اللحظة، استعاد سليم الجملة النبوية التي ظلّت تدور حول الرواية كلها دون أن تُقال مباشرة: موضع الرماة لم يكن زينةً في المعركة، بل حمايةٌ للظهر. وحين تركوا أماكنهم، لم يخسروا موقعًا فقط، بل فتحوا الطريق من حيث ظنّ الناس أنهم آمنون.

قال ببطء:

ـ لا تتركوا ظهوركم مكشوفة.

هزّ ياسر رأسه.

ـ نعم. هذا هو الفصل القادم في روايتك.

نظر إليه سليم بدهشة.

قال ياسر:

ـ لا تستغرب. قرأت بعض الصفحات التي أرسلتها مريم. أظن أن الرواية صارت تعرف عنا أكثر مما نعترف نحن عن أنفسنا.

أغلق سليم الملف، ودفعه نحو ياسر.

ـ احتفظ به.

قال ياسر:

ـ لا. يجب أن يكون معك.

ـ لا أريد أن أستخدمه الآن.

ـ لماذا؟

ـ لأنني إن نشرته في هذه اللحظة سأنتقم أكثر مما أُنير. ولأن خروجك من هناك أهم عندي من فضيحتهم. ولأن الحقائق الثقيلة تحتاج إلى توقيتٍ لا يخدم الغضب وحده.

نظر إليه ياسر طويلًا.

ـ تغيرت.

قال سليم:

ـ الجبل يعلّم ببطء.

خرج الاثنان من المكتبة قبل المغرب. كان الهواء باردًا، والشارع شبه فارغ. وقف ياسر عند الباب، وأخرج هاتفه. فتح رسالة الاستقالة، قرأها مرةً أخيرة، ثم ضغط إرسال.

لم يحدث شيءٌ في السماء. لم تبرق. لم تهتز الأرض. لم يسمع أحدٌ في الشارع صوت القرار. ومع ذلك، كان هناك شيءٌ عظيمٌ يحدث في موضعٍ لا تراه الكاميرات: رجلٌ يستعيد اسمه من مؤسسةٍ كادت تمنحه كل شيءٍ إلا نفسه.

قال ياسر وهو ينظر إلى الشاشة:

ـ أرسلتها.

قال سليم:

ـ كيف تشعر؟

ـ كأنني خسرت مظلةً واكتشفت أن الهواء، رغم برده، أصدق من السقف.

لم يعلّق سليم.

مشيا قليلًا في صمت.

ثم قال ياسر:

ـ سيغضب نديم.

ـ نعم.

ـ وسيقول إنني خنت المشروع.

ـ غالبًا.

ـ وسيقول إنك أثرت عليّ.

ـ ربما.

ـ هل فعلت؟

قال سليم:

ـ لا. أنت فقط سمعت صوتك قبل أن يدفنوه.

افترقا عند أول منعطف. عاد سليم إلى غرفته، لكنّه لم يدخل مباشرة. وقف طويلًا على السطح، ينظر إلى المدينة. كانت الأضواء تشتعل واحدًا بعد آخر، كأن كل نافذةٍ تحاول أن تقول إنها بخير. لكن سليم كان يعرف أن المدن قد تكون مضاءةً من الخارج ومظلمةً في معانيها، وأن الخطر لا يأتي دائمًا من الشوارع المعتمة، بل من القاعات التي تحترف الإضاءة.

بعد العشاء، اجتمعوا في المقهى: سليم، مريم، عمار، ثم جاء ياسر.

كان دخوله مترددًا. وقف عند الباب لحظةً، كما يقف العائد من سفرٍ طويلٍ لا يدري هل تغيّر البيت أم تغيّر هو. رآه عمار، فنهض فجأة.

قال:

ـ تعال يا رجل. لقد برد الشاي ونحن ننتظر عودة العقل إلى أصحابه.

ابتسم ياسر بحياء.

اقترب، فاحتضنه عمار بعنفٍ كاد يكسر ضلوعه.

قال عمار في أذنه:

ـ لا تعد إلى هناك دون أن تخبرني. على الأقل نودعك بقصيدة هجاء محترمة.

ضحك ياسر للمرة الأولى منذ زمن.

جلست مريم أمامه، وقالت:

ـ الحمد لله على سلامة الاسم.

لم يقل أحد: الحمد لله على الاستقالة. قالت: سلامة الاسم. وفهم ياسر.

وضع الملف على الطاولة.

قال:

ـ هذا ما كان يجري.

لم يمد عمار يده إليه فورًا. نظر إلى سليم.

قال سليم:

ـ سنقرأه، لكن لا ننشره الآن.

اعترض عمار:

ـ لماذا؟ هذه فرصتنا.

قال سليم:

ـ فرصة لماذا؟

ـ لكشفهم.

قال سليم:

ـ أو للانتقام.

قال عمار:

ـ وهل كل كشفٍ انتقام؟

قالت مريم:

ـ لا. لكن كل كشفٍ يحتاج إلى نيةٍ تستطيع أن تقف أمام الله دون أن تتخفى خلف الغضب.

سكت عمار، لكنه لم يقتنع تمامًا.

قال ياسر:

ـ هناك ما هو أهم من نشر الملف. يجب أن نفهم كيف نمنع عزلنا.

قال عمار:

ـ نحن أربعة في مقهى. أي عزلٍ أكثر من هذا؟

قال ياسر:

ـ لا. أنتم تظنون التأثير في الضجيج، لكن نصوص سليم وصلت إلى مجموعاتٍ من الشباب، وقصائدك يا عمار ما زالت تُقرأ، ومريم لها حضورٌ صامتٌ بين طلاب الجامعة، وأنا أعرف كيف يفكر الطرف الآخر. هذا ليس تنظيمًا، لكنه خيط. وهم يريدون قطع الخيط.

قالت مريم:

ـ إذن لا نترك الخيط في يد المزاج.

قال سليم:

ـ ماذا تقترحين؟

قالت:

ـ نكتب. لكن لا يكتب كل واحدٍ وحده دائمًا. نفتح مجلسًا صغيرًا للقراءة والحوار. لا باسمٍ صدامي، ولا تحت لافتةٍ تستدعي العداوة. مجلسٌ يحفظ الكلمة من العزلة، ويعلّم الشباب الفرق بين الحراسة والغلظة، وبين المشاركة والذوبان.

قال عمار:

ـ سنسميه مقهى الرماة.

قال ياسر:

ـ اسم كهذا سيجعلهم يكتبون تقريرًا قبل أن نشرب الشاي الأول.

قال سليم:

ـ لا نحتاج إلى اسمٍ يشرح كل شيء.

قالت مريم:

ـ سمّوه: **مجلس المعنى**.

صمتوا.

كان الاسم بسيطًا. غير مستفز. لا يرفع شعارًا حربيا، ولا يخفي جوهره. مجلسٌ للمعنى؛ وهذا وحده كان كافيًا.

قال عمار:

ـ بشرط أن يكون فيه شاي.

قال ياسر:

ـ وشروط منهجية.

قال عمار:

ـ عدتَ بسرعة.

ضحكوا.

لكن سليم كان يفكر في شيءٍ آخر. كان يرى أن الجبل، في الرواية وفي الحياة، لم يعد مكان وقوفٍ فردي، بل صار شبكة حراسة. الرماة لم يُؤمروا أن يقف كل واحدٍ في عزلةٍ عن الآخر، بل أن يحفظوا الموضع معًا. الظهر لا ينكشف فقط حين يغادر الحارس مكانه، بل حين يترك الحارس أخاه بلا نظر، بلا سؤال، بلا عون، بلا تذكير.

قال:

ـ مجلس المعنى ليس ردًا على نديم. يجب أن لا يكون رد فعل.

قالت مريم:

ـ بل يكون وفاءً لما كدنا ننساه.

قال ياسر:

ـ وعلينا أن نكون أذكى. لا يكفي أن نرفع عباراتٍ جميلة. نحتاج إلى بناءٍ حقيقي: قراءة، نقد، تدريب على الكتابة، تمييز المصطلحات، فقه المواقف، أخلاق الخلاف.

قال عمار:

ـ وأنا أدرّبهم على كيف ينجو الشعر من لجان التحكيم.

قال سليم:

ـ وتدرّبنا أولًا على كيف ينجو الشاعر من حاجته.

انخفضت عينا عمار لحظة، ثم قال:

ـ نعم. هذا أيضًا.

فتح سليم دفتره، وكتب:

مجلس المعنى: لا نترك ظهورنا مكشوفة.

ثم كتب تحته:

ليست الحراسة أن يقف كل واحدٍ على حجرته الخاصة، بل أن يعرف الحارس أن ظهره أمانةٌ عند أخيه.

في الأيام التالية، بدأت الفكرة تتخذ شكلًا. لم يعلنوا إعلانًا كبيرًا. لم يصمموا شعارًا. لم يطلبوا تمويلًا. بدأوا بدعوة عشرة شبابٍ فقط: قارئ، طالبة، شاعر مبتدئ، معلم، مصمم، باحث صغير، وفتاة تحفظ شيئًا من القرآن وتكتب خواطر لا تنشرها خوفًا من السخرية.

كان اللقاء الأول في المكتبة القديمة، لا في المقهى. أرادوا مكانًا تحضر فيه الكتب بوصفها شهودًا. جلسوا بين الرفوف، وأمامهم أكواب شاي، وعلى الطاولة مصحف، وكتاب سيرة، ودفتر كبير.

بدأ سليم الكلام:

ـ لسنا هنا لنصنع جماعةً ضد أحد. ولسنا هنا لنصير نسخةً أخرى من الذين نهاجمهم. نحن هنا لنتعلم كيف نحرس المعنى دون أن نخون الإنسان، وكيف

نشارك في العالم دون أن نذوب فيه، وكيف نكتب كلمةً لا تبيع روحها ولا تحتقر قارئها.

ثم تحدثت مريم عن الأمانة:

ـ قد تخون المعنى وأنت ترفعه شعارًا، وقد تحفظه وأنت تعمل بصمت. لا تغتروا بالصوت العالي، ولا تحتقروا العمل الخفي. اسألوا دائمًا: هل بقيت الروح في العمل، أم بقي شكله فقط؟

وتحدث ياسر عن المصطلحات:

ـ أخطر الهزائم تبدأ من الكلمات حين تُعاد برمجتها. من يملك تعريف «المسؤولية» يستطيع أن يجعل الصمت فضيلة. ومن يملك تعريف «الحراسة» يستطيع أن يجعل الأمانة تهمة. لذلك تعلموا أن تسألوا: من وضع هذا الاسم؟ ولماذا؟ وما الذي يُخفى وراء جماله؟

أما عمار، فقرأ قصيدةً قصيرة كتبها بعد عملية أمه:

ما كنتُ أخشى من الطريقِ وعُريهِ لكنني خفتُ الرفاقَ إذا مضوا وتركتُ ظهري للرياحِ وحيدَهُ فإذا بسهمٍ من يديَّ قد انقضى

لم تكن القصيدة تامة، لكنها هزّت المجلس.

بعد اللقاء، جاءت الفتاة التي تكتب خواطر إلى سليم. قالت بخجل:

ـ كنت أظن أنني يجب أن أكون قويةً جدًا حتى أكتب. اليوم فهمت أن الخوف لا يمنع الكتابة إذا لم نسمح له أن يكون قائدها.

قال لها سليم:

ـ اكتبي إذن.

قالت:

ـ وإن سخروا؟

قال:

ـ لا تجعلي السخرية أستاذك الأول. اعرضي نصك على من يصدقك لا على من يكسر يدك.

كان سليم يتحدث إليها، لكنه كان يسمع نفسه أيضًا. كم كسر الناس أيديهم بأيدي من لا يرحم، ثم قالوا: النقد ضروري. وكم تركوا الموهبة الصغيرة تحت المطر لأنها لم تأتِ بثوبٍ كامل من يومها الأول.

خرج من اللقاء بشعورٍ لم يذقه منذ زمن: ليس شعور النصر، بل شعور البناء. النصر قد ينتفخ في القلب، أما البناء فيجعله أكثر تواضعًا؛ لأنك ترى أن المعنى لا يُحرس بمقالٍ واحد، بل بتربيةٍ طويلة، وبأكتافٍ كثيرة، وبصبرٍ على بطء الثمار.

لكن نديم لم يتأخر في معرفة الأمر.

بعد أسبوعين، نشر على صفحته منشورًا عامًا:

تتكرر في مدينتنا محاولات إنشاء دوائر مغلقة تعيد إنتاج خطاب الحراسة تحت أسماء ناعمة كـ«المعنى» و«الأمانة». ونحن نؤكد أن الكلمة لا تزدهر

في الغرف الصغيرة، بل في الفضاء العام المفتوح، حيث الحوار لا الوصاية، والمشاركة لا الخنادق.

لم يذكرهم. لكنه أشار.

قرأ عمار المنشور وقال:

ـ لديه موهبة نادرة في شمّ الشاي من بعيد.

قال ياسر:

ـ لا تردوا.

قال عمار:

ـ سبحان مغير الأحوال. أنت تقول لا تردوا؟

قال ياسر:

ـ نعم. لأنه يريد جرّ المجلس إلى معركة تعريفية قبل أن يكبر. إذا صار المجلس «ردًا على نديم» مات قبل أن يولد.

قالت مريم:

ـ نكمل العمل.

قال سليم:

ـ ونكتب لأنفسنا قاعدة: لا نسمح لخصومنا أن يختاروا لنا موضع المعركة دائمًا.

في تلك الليلة، عاد سليم إلى الرواية. كتب فصلًا طويلًا عن الظهر المكشوف؛ لكنه لم يجعله فصلًا عن المؤامرة، بل عن معنى الجماعة الصغيرة حين تحرس بعضها من العزلة. كتب عن الرماة الذين لو نظر بعضهم إلى بعضٍ لحظة النزول، لو قال واحدٌ لأخيه: تذكر الأمر، ربما تغيّر شيء. وكتب عن كل عصرٍ تلمع فيه الغنائم، فلا يكفي أن يكون في الناس حارسٌ شجاع، بل لا بد أن يكون للحراس عهدٌ بينهم: إذا ضعفتُ فذكّرني، وإذا احتجتُ فأعنّي، وإذا قسوتُ فردّني، وإذا نزلتُ فلا تجعل أول كلامك لي لعنة، بل نداء.

كتب:

لا تُترك الظهور مكشوفةً إلا حين يظن كل حارسٍ أن موضعه يبدأ عند قدميه وينتهي عند صبره. والحقيقة أن موضعه يمتد إلى أخيه؛ فما دام أخوه ينهار بصمتٍ قريبًا منه، فإن الثغر بدأ يتخلخل وإن ظل واقفًا في مكانه.

ثم كتب:

الغنيمة الفردية لا تهزم الجماعة المتماسكة سريعًا؛ لكنها تهزم الأفراد المتباعدين واحدًا واحدًا. ولهذا كان أول واجب الحراسة بعد الطاعة: الرفقة.

توقف عند كلمة الرفقة.

شعر أنها الكلمة التي كان يبحث عنها منذ بداية الرواية. فالعنوان يقول: ما زلنا على جبل الرماة، لكن ضمير الجمع فيه لم يكن زينة. **ما زلنا، لا ما زلت.**

وهذا يعني أن الرواية ليست عن بطولة فردٍ أخير، بل عن نجاة الجمع القليل من التفرق، عن أن يقول أحدهم للآخر: لا أترك ظهرك للريح، ولا أترك حاجتك للغنيمة، ولا أترك خوفك للذين يحسنون شراء الخائفين.

في اليوم التالي، جاء إلى مجلس المعنى شابٌ جديد. كان اسمه حذيفة. هادئًا، نحيلًا، يحمل كاميرا صغيرة. قال إنه يعمل في التصوير والمونتاج، وإنه كان يحضر فعاليات مؤسسة أفق لتوثيقها، لكنه توقف.

سأله ياسر:

ـ لماذا؟

قال حذيفة:

ـ لأنني اكتشفت أنني أصوّر الوجوه من زاوية تجعلها أصدق مما هي عليه.

ضحك عمار:

ـ هذه عبارة شاعر سرقته الكاميرا.

قال حذيفة:

ـ لا. أقصد أن الصورة تكذب أحيانًا دون أن تغير شيئًا. فقط تختار زاويةً تخفي الندبة.

نظر سليم إلى مريم. كانت الجملة ثمينة.

قال حذيفة:

ـ أريد أن أوثق مجلسكم. لا للنشر الآن. للأرشيف.

قال سليم:

ـ لماذا؟

ـ لأن المدن حين تبدل أسماءها تحتاج إلى ذاكرةٍ تحفظ الأسماء الأولى.

وافقوا بشرط أن لا يُنشر شيءٌ دون إذن. وهكذا صار للمجلس عينٌ تحفظ ملامحه. لم تكن الكاميرا في يد حذيفة أداة شهرة، بل شاهدًا صغيرًا على أن هناك من جلسوا في مكتبةٍ قديمةٍ وحاولوا أن لا يتركوا ظهورهم مكشوفة.

لكن كل بناءٍ يثير خوف من اعتادوا أن تكون الساحة لهم وحدهم.

بعد شهر، جاءت الضربة.

أُرسل إلى بعض المشاركين في مجلس المعنى تحذيرٌ غير مباشر من حضور «دوائر غير مرخصة ذات توجهات تصادمية». أحدهم خاف ولم يعد. أخرى بكت لمريم وقالت إن والدها منعها. شابٌ كتب لسليم: «أحبكم، لكنني لا أستطيع أن أخسر عملي».

لم يلمهم سليم.

لكنّه شعر بالثمن.

في اللقاء التالي، كان الحضور أقل. المقاعد الفارغة كانت تتكلم أكثر من الجالسين. عمار غضب. ياسر حاول التحليل. مريم صمتت. أما سليم، ففتح المصحف وقرأ عليهم:

﴿وَكَأَيِّنْ مِنْ نَبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا وَاللهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ﴾

ثم قال:

ـ لا نقرأ الآية لنزعم أننا في مقامهم، ولا لنرفع أنفسنا فوق أقدارنا. نقرؤها لنتعلم أن الطريق الجاد يُغربل أصحابه. ليس كل من غاب خائنًا. بعضهم خائف، وبعضهم محاصر، وبعضهم لم يحن وقت صبره. لكن نحن أيضًا لا يجوز أن نربط صدق الطريق بعدد الكراسي الممتلئة.

قال عمار:

ـ وهل نكمل بثلاثة؟

قال سليم:

ـ إن بقي المعنى حيًا، فالثلاثة عددٌ كبير. وإن مات، فالألف زحامٌ لا أكثر.

كان حذيفة يصور من الزاوية، لكن يده ارتجفت قليلًا.

بعد اللقاء، قال لسليم:

ـ هذه الجملة يجب أن تكون في الرواية.

قال سليم:

ـ صارت فيها.

في تلك الليلة، كتب سليم حتى الفجر. كان يشعر أن الرواية لم تعد تنتظر منه، بل تقوده. الشخصيات صارت تملي عليه مصائرها، والمدينة صارت تكشف طبقاتها، والجبل صار أعلى وأقرب في الوقت نفسه.

كتب نهاية الفصل السابع:

حين قالوا: لا تتركوا ظهوركم مكشوفة، لم يكونوا يقصدون أن يحتمي بعضهم ببعضٍ من العدو وحده، بل من التعب، من الحاجة، من الكبر، من سوء الفهم، من الحماسة العمياء، من الرحمة المائعة، من الغنيمة إذا جاءت في ثوب نجاة، ومن الثبات إذا جاء في ثوب علوٍّ على الناس. فقد يكون ظهر الإنسان مكشوفًا لا لأن خصمه خلفه، بل لأن أخاه غائبٌ عنه في اللحظة التي كان ينبغي أن يقول له فيها: تذكر موضعك.

ثم توقف.

كان الفجر يقترب.

أذن المؤذن بصوتٍ بعيد، فشعر سليم أن المدينة، رغم كل شيء، لم تُسلّم نفسها كاملةً للعتمة. ما زال فيها صوتٌ يدعو إلى الله. ما زالت فيها نوافذ صغيرة تُفتح للوضوء. ما زال فيها رجلٌ يندم. وامرأةٌ ترفض غنيمةً براقة. وشاعرٌ يعود من السفح. وباحثٌ يستقيل. وشابٌّ يصور الذاكرة حتى لا تُسرق. وفتاةٌ تكتب أول نصٍّ خائف. ومقهى قديم. ومكتبة تحتضر لكنها تؤوي مجلسًا للمعنى.

قال في نفسه:

لسنا كثيرين. لكن الظهر لم يعد مكشوفًا كما كان.

ثم كتب آخر سطر:

وما دام في الجبل من يلتفت إلى أخيه قبل أن يلتفت إلى الغنيمة، فإن المعركة، مهما اشتدت، لم تنتهِ بعد.

الفصل الثامن

المعركة لم تَنْتَهِ

لم يكن أخطرُ ما في المعركة أن تبدأ، بل أن يظنّ الناس أنها انتهت.

هذا ما ظلَّ سليم يردده في نفسه كلما رأى المدينة تلبس ثياب العافية، وتعلّق على جدرانها لافتات الثقافة والحوار والتنمية، وتفتح قاعاتٍ جديدةً للندوات، وتطبع كتبًا أنيقة الأغلفة، وتستضيف كتّابًا يتحدثون عن القيم بأصواتٍ رخوةٍ لا تزعج أحدًا، كأن المعركة الكبرى التي دارت في أعماق المعنى قد وضعت سلاحها، وكأن السؤال انتهى، وكأن الناس عادوا من أُحد سالمين، لا جراح في الظهر، ولا رماة غادروا مواضعهم، ولا خيلٌ التفّت من الخلف، ولا غبارٌ يملأ الرئة.

كانت المدينة تريد أن تقنع الجميع بأن كل شيءٍ بخير.

وهذا، في نظر سليم، هو الوجه الأخير من وجوه الفتنة: أن لا تنكر المدينة السقوط، بل ترتّبه في قاعةٍ مضاءة، وتقدّمه في بيانٍ أنيق، ثم تطلب من الناس أن يسمّوه نضجًا.

بعد أشهرٍ قليلةٍ من قيام **مجلس المعنى**، بدأت آثاره الصغيرة تظهر في أماكن لا يتوقعها أحد. لم يكن المجلس كبيرًا، ولم يحضر لقاءاته إلا عددٌ قليل، لكن الكلمة الصادقة لا تحتاج دائمًا إلى جمهورٍ واسع كي تبدأ فعلها؛ أحيانًا تكفيها نفسٌ واحدةٌ تأخذها بجد، ثم تمضي بها في طريقٍ لا يعرفه صاحب الكلمة.

كتبت الفتاة الخائفة أول مقالٍ لها، ولم تنشره باسمها. كان عنوانه: **حين يخاف الإنسان من ضميره**. قرأه سليم فوجد فيه رعشة البداية، لا إتقان المحترفين، لكنه وجد فيه شيئًا نادرًا: الصدق الذي لم يتعلم بعد كيف يتزين. كتب لها ملاحظةً قصيرة:

لا تستعجلي البلاغة. احفظي الصدق أولًا، فالبلاغة التي تأتي قبل الصدق تصير قناعًا.

وصار حذيفة يصوّر لقاءات المجلس، لا كما تصوَّر الفعاليات الرسمية، بل كما تُحفظ الوجوه حين تكون في لحظة حقيقتها: يدٌ ترتجف وهي تقرأ، عينٌ تلمع عند آية، صمتٌ طويلٌ بعد سؤال، ضحكةٌ صغيرةٌ تكسر خوفًا كبيرًا، كتابٌ مفتوحٌ على طاولةٍ متعبة، وكوب شايٍ يبرد قرب جملةٍ لا يريد أحدٌ أن ينساها.

أما ياسر، فقد بدأ سلسلة أوراقٍ قصيرة يكتبها بلا اسم، عنوانها: **معجم الأسماء المقلوبة**. كان يتتبع فيها الكلمات التي غُيّرت دلالاتها في المدينة: المسؤولية، الواقعية، الحراسة، الانفتاح، التشنج، الاعتدال، المشاركة. لم يكن يهاجم أحدًا، لكنه كان يعيد الأسماء إلى مواضعها، كمن ينفض الغبار عن شواهد قبورٍ كي لا تضيع أسماء الموتى.

وكان عمار يكتب من جديد، لكن شعره تغيّر. لم تعد القصيدة عنده طلقةً غاضبةً فقط، بل صارت جرحًا واعيًا بدمه. صار يعرف أن النار إذا لم تجد قلبًا تقيًا قد تحرق صاحبها قبل خصمه. وفي إحدى الليالي قرأ عليهم:

لا تسألوا عن سهمِنا إن كان جارحَكم قليلًا نحن الذين تعلّموا أن السهامَ إذا بكتْ صارتْ دليلًا

قال له ياسر:

ـ لم أفهم الوزن، لكنني فهمت الجرح.

فقال عمار:

ـ هذا يكفيني منك مؤقتًا.

ضحكوا، وكان الضحك يعود إليهم كأنهم يستردون شيئًا من شبابهم الأول، لكنهم صاروا أكثر حذرًا من الضحك الذي يخدر؛ فقد تعلّموا أن الفرح إذا لم يكن موصولًا باليقظة قد يصير غنيمةً أخرى، وأن المجلس إذا نجح قليلًا قد يبدأ أهله في حب صورته بدل حبه للمعنى.

لذلك كانت مريم أكثرهم حراسةً للداخل.

كانت تقول لهم:

ـ أخاف على المجلس من نجاحه أكثر مما أخاف عليه من خصومه.

قال عمار:

ـ يا مريم، دعينا ننجح أولًا ثم خافي.

قالت:

ـ بل نخاف قبل النجاح حتى لا يأكلنا إذا جاء.

وكانت محقة.

فبعد فترةٍ قصيرة، بدأ بعض الحاضرين يقترحون توسيع المجلس، وتصوير اللقاءات، ونشر المقاطع، وجمع التبرعات، واستضافة أسماء كبيرة، وإطلاق منصةٍ إلكترونية. لم تكن الاقتراحات سيئةً في ذاتها، لكنها جاءت سريعةً، وفيها رائحة اللمعان الأول. نظر سليم إلى الوجوه المتحمسة، فتذكر نديمًا يوم دخل أول برنامجٍ تلفزيوني، وتذكر كيف تبدأ الغنيمة أحيانًا باسم الأثر.

قال لهم:

ـ لا أرفض التوسيع. لكن قبل كل توسعٍ يجب أن نسأل: هل كبر المعنى فينا، أم كبر حبنا لأن يُرى المعنى من خلالنا؟

ساد الصمت.

قال حذيفة:

ـ أليس النشر خدمةً للناس؟

قال سليم:

ـ قد يكون. وقد يكون خدمةً لصورتنا. والفرق لا يعرفه الجمهور، بل يعرفه القلب.

قالت مريم:

ـ لنجعل لنا قاعدة: لا نخرج إلى العلن حتى نتأكد أن الخفاء لم يعد يخدم المعنى أكثر.

قال عمار:

ـ هذه قاعدة تصلح لتعذيب الطموحين.

قال ياسر:

ـ وتصلح لإنقاذهم.

تأجل التوسع.

ولم يكن هذا قرارًا سهلاً. فالإنسان يحب أن يرى أثره، وأن يطمئن إلى أن ما يفعله ليس مجرد حديثٍ في غرفةٍ صغيرة. لكن سليم كان يزداد يقينًا أن بعض الأعمال تُفسدها السرعة إلى الضوء؛ لأن الضوء لا يكشف فقط، بل يسخّن الرغبة في الظهور، فإذا لم تكن النفس قد تربّت على الخفاء، أخذت من العلن أكثر مما تعطي.

غير أن نديم لم يكن نائمًا.

كان مرصده يكبر، وتقاريره تنتشر، ومؤسسة أفق تفتح فروعًا صغيرةً في مدنٍ أخرى. وصار مصطلح **خطاب الحراسة** يتردد في مقالاتٍ عديدة، حتى قاله بعض الشباب الذين لم يعرفوا أصل المعركة، ولم يجلسوا في مقهى الرماة، ولم يقرؤوا ميثاقه، لكنهم تلقّوا المصطلح كما تُتلقى العملات المتداولة: لا يسألون من سكّها، ولا ما المعدن الذي صُنعت منه، يكفي أنها مقبولةٌ في السوق.

وهنا أدرك سليم أن المعركة دخلت طورًا جديدًا.

في البداية كان الصراع حول موقف.
ثم صار حول أشخاص.
ثم صار حول أسماء.
والآن صار حول ذاكرة الجيل القادم.

من يملك المصطلحات التي سيتعلم بها الشباب فهم العالم؟
من يعرّف لهم معنى الحراسة؟
من يقول لهم إن الثبات توتر، وإن التمييع اتزان، وإن الوضوح بدائية، وإن الغنيمة فرصة، وإن الصمت مسؤولية، وإن الجبل عزلة، وإن السفح فضاء عام؟

ليست المعركة إذن في قاعة نديم ولا في مقهى سليم. إنها في المعجم الذي سينشأ عليه الذين لم يحضروا البداية.

في إحدى أمسيات المجلس، جاءهم شابٌ جديد اسمه بلال. كان يرتدي ملابس أنيقة، ويتحدث بثقةٍ واضحة. قال إنه حضر بدافع الفضول؛ لأنه قرأ عنهم في منشورٍ ينتقد «الدوائر الحارسة». جلس صامتًا نصف اللقاء، ثم رفع يده وقال:

ـ سؤالي مباشر: لماذا تخافون من الانفتاح؟ لماذا تحبون فكرة الحراسة؟ أليس الحارس في النهاية شخصًا يفترض أن لديه شيئًا يملكه ويمنع الآخرين من الاقتراب منه؟

ابتسم سليم.

كان السؤال مهمًا؛ لأنه لم يأتِ من خصومةٍ صريحة، بل من ذهنٍ تلقى المصطلح جاهزًا.

قال:

ـ الحراسة قد تكون مرضًا إذا كانت حراسةً للنفوذ أو الذات أو الجماعة المغلقة. لكنها تكون واجبًا إذا كانت حراسةً لما لا يملك الإنسان حق التفريط فيه. أنت لا تحرس الماء لأنك تكره العطشى، بل لأن تسميم الماء جريمةٌ في حقهم. ولا تحرس باب البيت لأنك تحتقر الضيوف، بل لأنك تفرق بين الضيف واللص. ولا تحرس معنى الوحي لأنك تملك الحقيقة من عند نفسك، بل لأن الحقيقة وديعةٌ لا يجوز أن تدخلها إلى السوق ثم تقول: ليتصرف بها المشترون كما يشاؤون.

قال بلال:

ـ لكن من يضمن أن الحارس لا يتحول إلى مستبد؟

قالت مريم:

ـ لا يضمن ذلك إلا التقوى والمحاسبة والرفقة الصادقة. لذلك نحن لا نثق بالحارس الفرد الذي لا يراجعه أحد، ولا بالجماعة التي تجعل الحراسة ذريعةً للكبر. ولهذا نقول: الحراسة أمانة، لا سلطة.

قال ياسر:

ـ والأهم: ليس كل انفتاح فضيلة. السؤال ليس: هل تنفتح؟ بل: على ماذا؟ وبأي شرط؟ ومن أي مركز؟ الانفتاح من غير أصلٍ يشبه فتح الأبواب في مدينةٍ لا أسوار لها ولا ذاكرة؛ يدخل الهواء، نعم، لكن يدخل معه كل شيء.

قال عمار:

ـ وأنا أضيف: حتى النوافذ تحتاج إلى يدٍ تعرف متى تفتحها ومتى تغلقها، وإلا صار البيت شارعًا.

ضحك بعض الحاضرين.

لكن بلال ظل جادًا.

قال:

ـ إذن مشكلتكم ليست مع المشاركة؟

قال سليم:

ـ أبدًا. مشكلتنا مع المشاركة التي تطلب منك أن تخلع اسمك قبل الدخول. ومع الحوار الذي يبدأ بشرطٍ خفي: لا تأتِ بيقينك معك. ومع المنصات التي تفتح لك صدرها بشرط أن تترك قلب خطابك عند الباب.

قال بلال بعد صمت:

ـ لم أسمع هذا التمييز من قبل.

قال سليم:

ـ لأن بعض الناس ربحوا كثيرًا من خلطه.

في تلك الليلة بقي بلال بعد اللقاء. تحدث مع ياسر طويلًا، ثم طلب قائمة كتب. وحين خرج، قال لحذيفة:

ـ كنت أظن أنكم جماعة غاضبة. وجدتكُم أكثر خوفًا من أنفسكم مما توقعت.

قال حذيفة:

ـ هذا أفضل تعريفٍ لنا حتى الآن.

انتشرت هذه الجملة بينهم، وصارت مزاحًا داخليًا: **جماعة تخاف من نفسها**. لكنها كانت في العمق وصفًا نبيلًا؛ فالذين لا يخافون من أنفسهم أخطر على الحق من خصومه أحيانًا.

وبينما كان المجلس يتعلم كيف يثبت دون أن يتصلب، حدث ما هزّ المدينة كلها.

أعلنت مؤسسة أفق مؤتمرًا كبيرًا بعنوان:

ما بعد الحراسة: نحو أفقٍ ثقافيٍّ جديد

كان المؤتمر برعاية جهاتٍ واسعة، وبمشاركة أسماءٍ من خارج البلاد، وبحضور إعلامي ضخم. نشروا جدول الجلسات، فإذا بنديم في الافتتاح، وياسر كان اسمه في نسخةٍ أولى من البرنامج ثم حُذف، وعوضًا عنه وُضع اسم باحثٍ شاب اشتهر بمقالٍ عنوانه: **نهاية أسطورة الثغر**.

كان واضحًا أن المؤتمر ليس حدثًا عاديًا. كان إعلانًا عن مرحلة. لم يعد المرصد يكتفي بالرصد، بل صار يريد إنتاج سرديةٍ كاملة: أن زمن الحراسة انتهى، وأن من يبقون على الجبل بقايا مرحلةٍ ينبغي تجاوزها، وأن المدينة الجديدة لا تحتاج إلى رماة، بل إلى وسطاء، وميسّرين، ومديري حوار، ومهندسي توافقات.

قرأ سليم عنوان المؤتمر وشعر أن الرواية خرجت من الورق إلى الشارع.

قال عمار:

ـ يجب أن نرد.

قال ياسر:

ـ كيف؟

قال عمار:

ـ بمؤتمر مضاد: **ما زلنا على جبل الرماة**.

قالت مريم:

ـ هذا ما يريدونه بالضبط. أن يحولوا المعركة إلى لافتتين متقابلتين.

قال حذيفة:

ـ يمكن أن نصنع فيلمًا قصيرًا.

نظروا إليه.

قال:

ـ لا أقصد دعاية. أقصد شهادة. صور من المجلس، أصوات مختلفة، معنى الحراسة كما نفهمه، لا كردٍّ على نديم فقط، بل كبيانٍ هادئ للناس.

قال ياسر:

ـ أخشى أن يجرّنا هذا إلى العلن قبل أوانه.

قالت مريم:

ـ لكن ربما جاء أوانه.

نظر الجميع إلى سليم.

كان يعرف أنهم ينتظرون رأيه، لكنه لم يحب هذا الانتظار. قال:

ـ لا تجعلوني صاحب الإذن. نحن نفكر معًا.

قال عمار:

ـ حسنًا، فكر بصوتٍ عالٍ.

سكت سليم، ثم قال:

ـ المعركة لم تنتهِ، وهذا المؤتمر يريد أن يعلن نهايتها من طرفٍ واحد. ليس المطلوب أن نصرخ في وجهه، لكن لا يجوز أن نترك الأسماء تُدفن. إذا صمتنا تمامًا، سيظن بعض الشباب أن الحراسة لم تكن إلا تهمةً صحيحة. وإذا رددنا بانفعال، سنؤكد صورتهم عنا. نحتاج إلى عملٍ لا يطلب الخصومة، لكنه لا يهرب منها إذا جاءت.

قالت مريم:

ـ إذن نصنع شهادةً بعنوان غير مستفز.

قال حذيفة:

ـ ما رأيكم: **حين يكون المعنى أمانة؟**

قال ياسر:

ـ جيد.

قال عمار:

ـ ضعيف.

قالت مريم:

ـ ليس كل عنوانٍ لا يصفع يكون ضعيفًا.

قال عمار:

ـ لكن العنوان يحتاج إلى نبض.

قال سليم بعد لحظة:

ـ **لئلا يبقى الظهر مكشوفًا**.

ساد الصمت.

قال حذيفة:

ـ هذا هو.

وهكذا بدأوا العمل على الفيلم القصير.

لم يكن فيلمًا احترافيًا كبيرًا، بل شهادةً من عشرين دقيقة. جلس سليم أمام رفوف المكتبة، وتحدث عن الفرق بين الحراسة والوصاية. جلست مريم أمام

خزانة المخطوطات، وتحدثت عن التراث حين يُحفظ ورقًا وتُهدر روحه. جلس ياسر إلى طاولةٍ عليها أوراق معجمه، وتحدث عن الأسماء حين تُقلب. قرأ عمار قصيدةً قصيرةً عن الرماة الذين لا يكرهون السفح، لكنهم يعرفون أن ظهورهم ليست ملكًا لهم وحدهم. تحدثت الفتاة الخائفة عن أول نص كتبته، وقالت: «كنت أظن أن المعنى يحتاج إلى أصواتٍ كبيرة، ثم فهمت أنه يحتاج أولًا إلى قلبٍ لا يكذب على نفسه». وظهر بلال في آخر الفيلم، يقول: «جئت لأناقشهم لأنني ظننتهم يخافون من العالم، فاكتشفت أنهم يخافون على ما يبقي العالم إنسانيًا».

كان الفيلم هادئًا. بلا موسيقى صاخبة. بلا صورٍ دراميةٍ مفتعلة. بلا هجومٍ مباشر. لكنه كان يحمل شيئًا لا تستطيع التقارير أن تلتقطه: الصدق الحيّ.

قبل نشره، اجتمعوا لمشاهدته.

حين انتهى، بقي الجميع صامتين.

قال عمار:

ـ حذيفة، لقد جعلتني أبدو عاقلًا. هذه خيانة فنية.

قال حذيفة:

ـ قصصتُ المقاطع التي تهدد السلم الثقافي.

ضحكوا.

ثم سأل ياسر:

ـ هل ننشره قبل المؤتمر أم بعده؟

قالت مريم:

ـ قبله بيوم. حتى لا يبدو ردًا على جلسة بعينها، بل شهادةً تسبق الضجيج.

قال سليم:

ـ ننشره دون ذكر المؤتمر.

وافقوا.

نُشر الفيلم مساء الخميس.

في الساعات الأولى، لم يحدث شيء كبير. مشاهدات قليلة، تعليقات هادئة. ثم بدأ ينتشر ببطء، لا كانتشار المقاطع المثيرة، بل كالماء حين يجد شقوق الأرض. شاركه بعض الشباب، ثم بعض الأساتذة، ثم صفحات لم يعرفوها. وكتب أحدهم:

أول مرة أفهم أن الحراسة ليست خصومةً مع الحياة، بل خوفٌ من أن تفقد الحياة بوصلتها.

وكتبت امرأة:

بكيت عند جملة: لا تحفظوا الورق وتتركوا الروح.

وكتب آخر:

لسنا ضد الانفتاح، لكننا ضد أن يُطلب منا أن ندخل بلا قلوبنا.

في صباح اليوم التالي، صار الفيلم حديثًا محدودًا لكنه مؤثر. لم يبلغ ضجيج مؤتمر أفق، لكنه أحدث شقًا في السردية التي كانت تظن نفسها كاملة.

ثم جاء رد نديم.

لم يكتب منشورًا عاديًا. صعد في الجلسة الافتتاحية للمؤتمر، وألقى كلمةً طويلة. كان المسرح فخمًا، والإضاءة مدروسة، والجمهور كبيرًا. نُقلت الكلمة مباشرةً.

جلس سليم وأصحابه في المكتبة القديمة يشاهدون البث على شاشة حذيفة.

بدأ نديم هادئًا:

ـ لا نريد أن نحاكم النوايا. هناك أصواتٌ صادقة تخاف على المعنى، ونحن نحترم صدقها. لكن الصدق لا يكفي إذا كان أسير استعاراتٍ حربيةٍ تقسم العالم إلى جبلٍ وسفح، حارسٍ ونازل، ثغرٍ وغنيمة. لقد انتهى زمن الحراسة بمعناها القديم. العالم اليوم يحتاج إلى مشاركةٍ شجاعة، لا إلى مواقع دفاعٍ رمزية.

توقف قليلًا، ثم قال:

ـ المعركة انتهت.

هنا رفع سليم رأسه.

كأن الجملة خرجت من قلب الرواية ذاتها، لا من منصة المؤتمر.

أكمل نديم:

ـ ومن يصرّ على البقاء في موضع معركةٍ انتهت، سيصنع عدوًا من كل مختلف، وغنيمةً من كل فرصة، وخيانةً من كل انتقال. نحن ندعوهم إلى النزول من الجبل، لا إلى الغنيمة، بل إلى الناس.

ساد تصفيقٌ واسع.

في المكتبة، لم يتكلم أحد.

كان عمار يضغط على قبضته. ياسر ينظر إلى الأرض. مريم ثابتة الوجه. حذيفة أوقف التسجيل لحظةً ثم أعاده. أما سليم، فكان هادئًا على نحوٍ غريب.

قال عمار:

ـ ردّ الآن.

قال سليم:

ـ لا.

ـ قال المعركة انتهت!

ـ نعم.

ـ وهذه أكذوبة.

قال سليم:

ـ بل هذه هي الجملة التي ستكشف كل شيء.

قالت مريم:

ـ ماذا تقصد؟

نهض سليم، ومشى بين الرفوف. كانت الكتب حوله صامتةً كجنودٍ قدامى. وقف عند كتاب السيرة، فتحه، ثم قال:

ـ في أُحد، ظن بعض الرماة أن المعركة انتهت. لم يكونوا يريدون خيانة النبي صلى الله عليه وسلم، ولم يكونوا يكرهون الطاعة. فقط قرأوا المشهد بعيون الغنيمة لا بعيون الأمر. المشكلة لم تكن أنهم رأوا شيئًا في السفح، بل أنهم جعلوا ما رأوه دليلًا على انتهاء ما سمعوه.

ثم أغلق الكتاب.

ـ نديم قال الآن الجملة كلها: المعركة انتهت. وهذه هي فتنة الرواية، وفتنة المدينة، وفتنة كل حارس. من يملك إعلان النهاية؟ المنصة؟ التصفيق؟ اللمعان؟ التعب؟ الرغبة في النزول إلى الناس؟ أم الأمر الذي لم يرفع؟

قال ياسر:

ـ يجب أن تكتب هذا.

قال سليم:

ـ سأكتبه. لا كردٍّ عليه، بل كفصلٍ في الرواية.

جلس، وفتح حاسوبه.

كتب عنوان الفصل:

المعركة لم تنتهِ

ثم بدأ:

لم يكن الخطر في أن يقول رجلٌ على منصةٍ مضاءةٍ إن المعركة انتهت، بل في أن يصدقه حارسٌ متعبٌ على جبلٍ بارد.

توقف، ثم تابع:

فالمعارك التي تتصل بالمعنى لا تنتهي حين يملّ الناس من مفرداتها، ولا حين تتغير أزياء الغنيمة، ولا حين يصعد النازلون إلى المنابر لشرح فضائل النزول. تنتهي فقط حين يُرفع التكليف، أو حين يموت القلب فلا يعود يشعر أنه ترك شيئًا.

كان يكتب بسرعةٍ لم يعرفها منذ زمن. لم تكن سرعة غضب، بل سرعة وضوح.

كتب عن المدينة التي تريد أن تنزل الرماة باسم الناس، مع أن بقاءهم كان من أجل الناس. وعن الذين يجعلون الحراسة عزلة، مع أن ترك الحراسة هو الذي يكشف ظهور الناس للغزو الناعم. وعن أن النزول إلى الناس لا يكون بترك موضعك، بل بحراسة ما يحتاجه الناس وإن لم يعرفوا حاجتهم إليه.

ثم كتب:

قالوا: انزلوا إلى الناس. ولم يفهموا أن بعض البقاء في الأعلى ليس تعاليًا على الناس، بل حمايةٌ لهم من طريقٍ لا يرونه. فالذي يحرس الظهر لا يقف خلف الصف لأنه يكره الصف، بل لأنه يعرف أن الضربة قد تأتي من حيث لا يلتفت الناس.

وفي نهاية الفصل، كتب جملةً شعر أنها خلاصة كل ما جرى:

المعركة لم تنتهِ؛ لأن الغنيمة ما زالت تلمع، ولأن الأسماء ما زالت تُقلَب، ولأن الحراس ما زالوا يتعبون، ولأن الظهور ما زالت تحتاج إلى من لا يبرح مكانه عند أول تصفيقٍ يعلن السلام.

قرأ عليهم ما كتب.

لم يقل أحد شيئًا.

كانت مريم أول من تكلمت:

ـ هذا ليس فصلًا فقط. هذا قلب الرواية.

قال عمار:

ـ انشره.

قال سليم:

ـ لا. سيبقى في الرواية.

اعترض عمار:

ـ لكن الناس يحتاجونه الآن.

قال سليم:

ـ الناس يحتاجون شيئًا أبقى من ردٍّ سريع. أحيانًا يكون ترك النص لينضج أصدق من رميه في المعركة فورًا.

قال ياسر:

ـ لكن لا بد من كلمةٍ قصيرة.

أومأ سليم. كتب منشورًا لا يتجاوز أسطرًا:

لا تنتهي معركة المعنى لأن منصةً أعلنت نهايتها، ولا يصير الثغر وهمًا لأن الغنيمة غيّرت اسمها. قد ننزل إلى الناس رحمةً وتعليمًا وخدمة، لكننا لا ننزل عن الموضع الذي يحفظ ظهورهم. فليست كل دعوةٍ إلى النزول تواضعًا؛ بعضها التفافٌ ناعمٌ على الأمر الأول.

نشره.

لم يذكر نديم، ولا المؤتمر.

لكن الجميع فهم.

وفي تلك الليلة، بينما كان المؤتمر يحتفل بنجاحه الكبير، كانت جملة سليم تنتشر بصمتٍ بين الذين شاهدوا الفيلم، وقرأوا المنشور، وشعروا أن شيئًا في داخلهم كان ينتظر هذه العبارة:

لا ننزل عن الموضع الذي يحفظ ظهورهم.

في آخر الليل، تلقى سليم رسالةً من نديم نفسه.

لم تكن طويلة:

أنت مصرّ أن تجعلني خائنًا في روايتك.

قرأها سليم مرارًا.

ثم أجاب:

لا. أخاف أن أجعلك خائنًا فأظلمك، وأخاف أن أعفيك من النزول فأظلم المعنى. ما زلت أبحث عن العدل بين الجرح والحقيقة.

جاء رد نديم بعد دقائق:

وهل تركت لي طريق عودة؟

توقف قلب سليم لحظة.

كانت الجملة غير متوقعة. لم تكن اعترافًا، لكنها لم تكن هجومًا. كانت شيئًا بينهما، كيدٍ خرجت من بابٍ نصف مغلق ثم ترددت.

كتب سليم:

الطريق لا يغلقه الجبل. يغلقه الكبر.

لم يرد نديم.

بقي سليم ينظر إلى الشاشة، ثم أطفأ الهاتف.

في تلك الليلة، لم ينم سريعًا. خرج إلى السطح. كانت المدينة تحت ضوء القمر تبدو أقل صخبًا، كأنها بعد كل المؤتمرات والتقارير والمنشورات عادت إلى حقيقتها الأولى: بيوتٌ صغيرة، نوافذ، ناسٌ ينامون على تعب، وأذانٌ سيأتي بعد ساعات ليذكرهم أن فوق كل أسماء المدينة اسم الله.

تذكر أباه.
وتذكر أول جملة.
وتذكر الرماة.
وتذكر نديمًا.
وتذكر السؤال: هل تركت لي طريق عودة؟

قال في نفسه:

ربما لم تنتهِ المعركة لأن بعض النازلين لم يموتوا بعد في داخل أنفسهم.

وهذه كانت بارقةً لم يتوقعها. فالمعركة ليست فقط أن يبقى الواقفون في مواضعهم، بل أن يبقى في قلوبهم أملٌ أن يعود من نزل. لو انقطع هذا الأمل، صار الجبل قلعةً باردة، لا موضع حراسة.

فتح دفتره الأسود، وكتب:

المعركة لم تنتهِ ما دام في الحارس رحمة، وفي النازل خجل، وفي المدينة بقيةٌ تسمع النداء.

ثم أضاف:

ولا يكتمل الثبات حتى يحفظ طريق العودة، كما يحفظ موضع الوقوف.

وفي اليوم التالي، بدأت المدينة تنقسم على نحوٍ لم يحدث من قبل. لا انقسامًا صاخبًا في الشوارع، بل انقسامًا في الوعي. صار الناس يسألون: هل انتهت المعركة حقًا؟ وهل الحراسة عزلة؟ وهل المشاركة بلا شروط فضيلة؟ وهل يمكن أن ننزل إلى الناس دون أن ننزل عن الأمر؟ وهل كان الذين وقفوا على الجبل قساةً، أم كانوا يحرسون ظهرًا لم نره؟

كان هذا وحده كافيًا ليعرف سليم أن إعلان النهاية فشل.

لأن المعركة التي يُعاد طرح سؤالها لم تنتهِ.

وفي ختام الفصل الثامن من روايته، كتب:

لم ينتصروا يوم قالوا إن المعركة انتهت، ولم ننتصر يوم قلنا إنها باقية. النصر لم يكن في الجملة، بل في أن يعود الناس إلى السؤال. فالمدينة التي تسأل لم تمت بعد، والحارس الذي يتألم لم ينزل بعد، والنازل الذي يطلب طريق العودة لم يُغلق عليه الباب بعد.

ثم وضع السطر الأخير:

وكان الجبل، على صمته، يعرف أن الليل لم يقل كلمته الأخيرة، وأن الفجر لا يأتي إلى الذين غادروا مواضعهم عند أول ضوءٍ كاذب.

الفصل التاسع

الَّذِينَ عَادُوا بِلَا وُجُوهِهِمْ

لم يكن أشدُّ ما في النزول أن يبتعد الإنسان عن الجبل، بل أن يبتعد عن وجهه.

فالمسافة بين القمة والسفح تُقطع بالأقدام، أما المسافة بين الإنسان ونفسه فتُقطع بالتبرير، وبالأسماء اللينة، وبالرضا البطيء عن الخدوش الصغيرة في المرآة، حتى يأتي يومٌ يقف فيه المرء أمام ذاته فلا يرى الخيانة واضحةً بما يكفي ليتوب، ولا يرى البراءة كاملةً بما يكفي ليطمئن، بل يرى وجهًا متوسطًا، لا هو وجهه الأول، ولا هو وجه العدو الذي كان يخاف أن يصير إليه.

وكان سليم يخاف من هذه المنطقة أكثر من خوفه من السقوط الصريح؛ لأن الساقط إذا عرف أنه سقط أمكن أن يمد يده، أما الذي عاد بلا وجهه، فإنه يظل يتحدث بصوته القديم، ويستعمل مفرداته القديمة، ويستدعي تاريخه القديم، لكنه حين يبتسم لا تعرف أي رجلٍ يبتسم لك: الصديق الذي عرفته، أم الرجل الذي تعلم أن ينجو من صديقه.

بعد مؤتمر **ما بعد الحراسة**، بدا نديم منتصرًا في الظاهر. الصور كثيرة، التصفيق واسع، العناوين تحتفي به بوصفه «صوت المرحلة الجديدة»، والوجوه التي كانت تتردد في إعلان قربها منه صارت تزاحمه عند المنصة. لكن سليم، وهو يتابع المشهد من بعيد، كان يرى شيئًا آخر: يرى رجلًا يلمع أكثر مما يطمئن، ويتكلم أكثر مما يستقر، ويكثر من استعمال كلمة «الناس»

كأنه يريد أن يغطي بها غياب شخصٍ واحدٍ في داخله لا يزال يسأله: أين أنت؟

لم يكن هذا حدسًا أدبيًا فقط.

فالرسالة التي أرسلها نديم: **وهل تركت لي طريق عودة؟** لم تغادر ذهن سليم. كانت مثل حجرٍ صغيرٍ أُلقي في ماءٍ عميق، لم يصنع موجةً كبيرة، لكنه كشف أن السطح ليس ساكنًا كما يبدو. وقد تعلّم سليم أن الإنسان لا يسأل عن طريق العودة إلا إذا شعر، ولو لحظة، أنه ليس في موضعه.

بعد يومين، وصلته رسالة أخرى من نديم:

أريد أن أراك. لا في المقهى. لا في المؤسسة. في مكانٍ ثالث.

أجاب سليم:

اختر.

جاء الرد:

المقبرة. عند قبر أبيك. بعد العصر.

قرأ سليم الرسالة طويلًا.

لم يكن اختيار المكان عاديًا. نديم يعرف قبر أبيه. كان قد حضر جنازته يوم مات، وبكى يومها بكاءً صادقًا. كان يقف إلى جوار سليم، ويمسك كتفه، ويقول له: «لن نتركك وحدك». لم يكن قد صار بعد رجل المنصات. كان ما يزال صديقًا يعرف أن الموت يخلع عن الحياة كثيرًا من زينتها الكاذبة.

ذهب سليم بعد العصر.

كانت المقبرة هادئةً، إلا من صوت الريح وهي تمرّ بين الشواهد، كأنها تقرأ أسماءً لا يقرأها الأحياء إلا في مواسم الفقد. وجد نديم واقفًا قرب قبر الأب، بلا كاميرات، بلا مرافقين، بلا تلك الابتسامة الرسمية التي صار يستعملها كجدارٍ مهذبٍ بينه وبين العالم. كان يرتدي ثوبًا بسيطًا وسترةً داكنة. بدا أصغر وأكبر في الوقت نفسه؛ أصغر لأنه فقد شيئًا من زينة المنصة، وأكبر لأن التعب حين يظهر على الوجه يضيف إلى العمر سنواتٍ دفعةً واحدة.

اقترب سليم، وسلّم عليه.

لم يتعانقا.

وقفا أمام القبر صامتين.

قرأ سليم الفاتحة وما تيسر من الدعاء، ثم قال:

ـ لماذا هنا؟

قال نديم دون أن ينظر إليه:

ـ لأن أباك كان آخر رجلٍ أشعر بالخجل إذا كذبت أمام قبره.

لم يجب سليم.

قال نديم:

ـ كنتُ أظن أنني إذا صعدت إلى المنصة سأكبر. اكتشفتُ أن بعض المنصات لا ترفعك، بل ترفع صورتك وتتركك تحتها.

سكت قليلًا.

ـ هل تعرف ما المشكلة؟ أنني لم أكذب بالكامل. هذا ما يقتلني. في كل ما قلته شيءٌ من الحقيقة. الحراسة قد تتحول إلى وصاية. والثبات قد يصير عنادًا. وبعضكم كان قاسيًا. وبعض الخطابات تصنع عزلة. والمشاركة مطلوبة. كل هذا صحيح. لكنني أخذت هذه الحقائق الصغيرة وجعلتها تخدم هروبي الكبير.

كان الاعتراف دقيقًا إلى حدٍّ أوجع سليم.

قال:

ـ لماذا لم تقل هذا من قبل؟

ضحك نديم بمرارة:

ـ لأنني كنتُ كلما اقتربت من الاعتراف، جاءني تصفيقٌ جديدٌ فأنقذني من نفسي.

ثم أضاف:

ـ التصفيق مخدرٌ محترم. لا يغيّب عقلك دفعةً واحدة، لكنه يجعل الألم الداخلي محتملًا بما يكفي لتؤجل علاجه.

نظر سليم إلى القبر.

كان يتذكر جملة أبيه: **احذر التصفيق إذا جاءك ثمنًا لصمتك.**

قال نديم:

ـ لستُ بريئًا يا سليم. لا أريد أن أبدو ضحية. أنا اخترت. كل خطوةٍ كان يمكن أن أقف عندها. لكن المشكلة أنني كنت أعود في كل مرةٍ ومعي مبرر أجمل من السابق. حتى صارت المبررات بيتًا كاملًا أسكن فيه.

قال سليم:

ـ ولماذا جئت الآن؟

أخرج نديم من جيبه ورقةً مطوية.

ـ لأنهم طلبوا مني شيئًا لم أستطع تبريره.

مدّ الورقة إليه.

قرأ سليم. كانت مسودة مشروع جديد بعنوان:

برنامج إعادة تأهيل الخطاب الشبابي

وفي البنود الداخلية: تحديد المؤثرين الشباب ذوي «النزعات الحارسة»، استقطاب بعضهم، عزل غير القابلين للتعاون، إنتاج محتوى بديل، بناء شبكات ولاء ثقافي، وإعادة ضبط مصادر التأثير غير الرسمية.

كانت اللغة باردة، لكن البرد أحيانًا أقسى من الشتيمة. إنها لا تكرهك، بل تصنفك. لا تغضب منك، بل تضعك في خانة. لا تسفك دمك، بل تعيد هندسة حضورك حتى تصير أقل قدرةً على الحياة.

قال نديم:

ـ هذه المرة لم يعد الأمر تقريرًا. صار برنامجًا. يريدون أن أوقع عليه.

قال سليم:

ـ وستوقع؟

نظر إليه نديم كمن تلقى ضربةً يستحقها.

ـ لو كنتُ سأوقع، لما جئت إلى المقبرة.

قال سليم:

ـ وماذا تريد مني؟

قال نديم:

ـ لا أعرف. ربما أردت أن أرى هل بقي في وجهي شيءٌ تعرفه.

كان السؤال عاريًا.

نظر سليم إلى وجهه طويلًا. رأى الصديق الذي ضحك في مقهى الخميس، ورأى الرجل الذي صعد المنصة ليعلن انتهاء المعركة، ورأى طفلًا خائفًا من

أن يعود فلا يجد مكانًا، ورأى كاتبًا موهوبًا أحب القبول حتى صار القبول قيدًا ذهبيًا حول عنقه.

قال سليم:

ـ بقي شيء. لكنه متعب.

أغمض نديم عينيه.

ـ الحمد لله.

لم تكن الكلمة كاملة الطمأنينة، لكنها كانت بداية.

جلسا على حجرٍ قريب من القبر. كانت الشمس تميل إلى الغروب، والظلال تطول بين الشواهد كأن الموت يمد درسه على الأرض.

قال نديم:

ـ أريد أن أستقيل.

قال سليم:

ـ من المؤسسة؟

ـ من كل شيءٍ بنيته على هذا الطريق.

ـ الثمن كبير.

ـ أعرف.

ـ سيقولون إنك انهرت أمام ضغطنا.

ـ سيقولون أكثر من ذلك.

ـ سيخرجون ملفاتك، رسائلك، تناقضاتك.

ـ أعرف.

ـ وبعض الذين صفقوا لك سيتركونك.

ضحك نديم:

ـ الذين صفقوا لي لم يكونوا معي أصلًا. كانوا مع الصورة التي نفعتهم.

قال سليم:

ـ وماذا عن الذين آذيتهم؟

أطرق نديم.

ـ هنا أحتاجك.

ـ لا. تحتاج إلى الحق قبل أن تحتاجني.

قال نديم:

ـ أريد أن أعتذر.

قال سليم:

ـ الاعتذار لمن؟

ـ لك. لعمار. لياسر. لمريم. للشباب الذين وضعتهم في خانة المرض لأنهم تمسكوا بما خفتُ أنا أن أتمسك به.

قال سليم:

ـ الاعتذار ليس بيانًا أنيقًا.

ـ أعرف.

ـ وليس طريقةً لترميم صورتك.

ـ أخاف من هذا.

ـ جيد أنك تخاف.

قال نديم:

ـ هل تقبلون اعتذاري؟

قال سليم بعد صمت:

ـ لا أملك قبولهم. ولا أملك إسقاط أثر ما حدث. لكنني أملك أن أقول لك: طريق العودة مفتوح، وليس مفروشًا.

هزّ نديم رأسه.

ـ أستحق الحجارة.

قال سليم:

ـ لا تبدأ بتمثيل الندم أيضًا. بعض الناس إذا تابوا أحبوا صورة التائب كما أحبوا صورة الناجح. امشِ بهدوء. أصلح ما تستطيع. اعترف بقدر ما يلزم. ولا تجعل جرحك الجديد منصةً أخرى.

ابتسم نديم لأول مرةٍ بصدقٍ كامل.

ـ قاسٍ كالعادة.

قال سليم:

ـ أحاول أن أكون رحيمًا بلا كذب.

حين غادرا المقبرة، كان الأذان يعلو من مسجدٍ قريب. توقف نديم قليلًا.

قال:

ـ لم أصلِّ العصر.

قال سليم:

ـ المسجد قريب.

مشيا إليه.

لم يكن هذا المشهد ذروةً دراميةً كما في الروايات السهلة؛ لم يسقط نديم باكيًا عند الباب، ولم يتحول فجأةً إلى رجلٍ جديدٍ كامل، ولم تُمحَ السنوات بركعتين. لكنه دخل المسجد صامتًا، ووقف في الصف الأخير، وصلّى. وكان سليم

يشعر أن العودة تبدأ أحيانًا لا بخطبةٍ عظيمة، بل بأن يقف الإنسان حيث ينبغي أن يقف، ولو في الصف الأخير.

في تلك الليلة، اجتمعوا في المكتبة القديمة.

جاء نديم متأخرًا قليلًا. حين دخل، سكت الجميع.

كان عمار أول من تكلم:

ـ لا تقل لي إنك جئت لتؤسس مرصدًا لمراقبة الشاي.

لم يضحك أحد، ثم ضحك نديم نفسه، فانفرج الجو قليلًا.

جلس نديم أمامهم. لم يحاول أن يبدو واثقًا.

قال:

ـ جئت أعتذر.

قال عمار:

ـ هذه بداية خطرة. أكمل.

قال نديم:

ـ أخطأت فيكم. لا في كل شيءٍ قلته، لكن في الطريقة التي جعلت بها بعض الحقائق تخدم خوفي وطموحي. أخطأت حين حولت الحراسة إلى تهمةٍ عامة، وحين قبلت أن يُصنّف أصحابي في تقارير باردة، وحين جعلت المشروع أهم من الحق، وحين صرت أغضب ممن يذكرني باسمي الأول.

لم يرفع أحد عينيه عنه إلا مريم. كانت تنظر إليه بثباتٍ لا قسوة فيه.

قالت:

ـ وماذا ستفعل؟

قال:

ـ سأستقيل، وأنشر بيانًا واضحًا أتحمل فيه مسؤوليتي، دون فضائح ودون تبرئة لنفسي. وسأسلّمكم ما لدي من وثائق، لا لتنتقموا، بل لتعرفوا كيف تحمون الشباب. وسأعتذر علنًا عن استعمال مصطلح «خطاب الحراسة» بطريقةٍ جعلت الأمانة تبدو مرضًا.

قال ياسر:

ـ سيكلفك هذا كثيرًا.

قال نديم:

ـ تأخرت في دفع الثمن.

قال عمار:

ـ وماذا عني؟

نظر إليه نديم.

ـ سامحني.

قال عمار:

ـ لا أبيع السماح بالجملة.

قال نديم:

ـ أعرف.

قال عمار:

ـ لقد جعلتني أشعر أن فقري دليل تخلف، وأن غضبي مرض، وأن شعري خطر على السلم الثقافي.

قال نديم:

ـ نعم.

ـ ولمّا احتجتَ إلى صوتٍ حاد، عرضت عليّ وظيفةً في القفص.

ـ نعم.

ـ ولمّا رفضتُ، جعلتني مثالًا على الشاعر الذي لا يفهم الزمن.

ـ نعم.

قال عمار:

ـ حسنًا. الآن بدأت تعجبني إجاباتك. استمر بقول نعم حتى يتعب كبرياؤك.

لم يكن عمار يمزح تمامًا.

قال نديم:

ـ نعم.

صمت عمار، ثم قال:

ـ لا أسامحك الآن. لكنني لا أطردك.

قال نديم:

ـ هذا أكثر مما أستحق.

قالت مريم:

ـ لسنا هنا لنوزع الاستحقاق. نحن هنا لنرى هل بقي فيك صدقٌ يصلح للبناء.

ثم أضافت:

ـ لكن اعلم أن العودة لا تعني أن تعود إلى مركز الطاولة. أحيانًا يعود الإنسان ويجلس عند الطرف حتى يتعلم أن القرب ليس حقًا مكتسبًا من الماضي.

قال نديم:

ـ أقبل.

قال ياسر:

ـ أول ما ينبغي فعله أن لا تنشر بيانك وحدك. اكتبه، ثم نراجعه معًا حتى لا يكون تبرئةً ناعمة.

قال عمار:

ـ وأنا أراجع العبارات التي تشبه العطر الزائد.

قال سليم:

ـ والوثائق لا تُنشر الآن. نفهمها أولًا، ونستعملها لحماية الناس، لا لصناعة فضيحة.

قال نديم:

ـ كنت أتوقع أن تريدوا إسقاطي.

قال عمار:

ـ أردنا ذلك أمس. اليوم نحن أكثر تهذيبًا.

قالت مريم:

ـ لا نريد إسقاطك؛ نريد ألا تظل واقفًا فوق الذين أسقطتهم لغتك.

انخفض رأس نديم.

في الأيام التالية، كتب نديم بيانه. لم يكن طويلًا، لكنه كان واضحًا:

أعتذر عن استعمالي المتكرر لمصطلح «خطاب الحراسة» بطريقةٍ اختزلت أصواتًا صادقةً في صورةٍ متشنجة، وأعترف أنني شاركت، بوعيٍ أو بغفلةٍ مريحة، في صناعة مناخٍ ثقافي يجعل الأمانة تهمةً حين لا توافق شروط المنصة. إن المشاركة التي تطلب من الإنسان أن يترك يقينه عند الباب

ليست انفتاحًا، بل خسارةٌ مؤدبة. وإن الحراسة التي تنبع من التقوى والرحمة ليست عزلةً عن الناس، بل وفاءٌ لما يحفظ للناس ظهورهم ووجوههم.

نشر البيان.

اشتعلت المدينة.

الذين صفقوا له أمس قالوا إنه تراجع تحت ضغط «دوائر مغلقة». الذين هاجموه سابقًا لم يصدقوه كلهم. بعضهم قال: مناورة. بعضهم قال: سقوط. بعضهم قال: صحوة ضمير. مؤسسة أفق أصدرت بيانًا باردًا تقول فيه إن نديم «مرّ بتحولاتٍ شخصيةٍ نحترمها، لكنها لا تمثل المؤسسة»، ثم حذفت اسمه من موقعها خلال ساعات.

هكذا تُدفن الوجوه في المؤسسات: بضغطة حذف.

قرأ نديم البيان، وقال لسليم:

ـ كنت أظن أنني كنت مهمًا.

قال سليم:

ـ كنت مفيدًا.

ـ والفرق؟

ـ المهم يبقى في الذاكرة. المفيد يُستبدل عند انتهاء وظيفته.

لم يعلّق نديم.

بدأت مرحلة أصعب من الاعتذار: مرحلة الفراغ.

لم يعد نديم في المؤسسة، ولم يعد في المقهى كما كان، ولم يعد على المنصة، ولم يعد بين الفريقين تمامًا. صار في منطقة بينية، وهذا من عدل التوبة أحيانًا؛ فهي لا تعيد الإنسان فورًا إلى دفء المكان الذي تركه، بل تجعله يقف في البرد حتى يعرف قيمة الدفء الذي خانه.

كان يأتي إلى مجلس المعنى، يجلس في الخلف، لا يتكلم إلا قليلًا. بعض الشباب ينظرون إليه بريبة. حذيفة لم يصوره. مريم تكلمه بوقارٍ حذر. عمار لا يزال يقسو عليه بطرافةٍ لاذعة. وياسر يفهمه أكثر من الجميع؛ لأنهما عرفا طريق النزول من الداخل، وإن اختلفت الدرجة.

ذات ليلة، بعد المجلس، بقي نديم وحده يرتب الكراسي. دخل عليه سليم.

قال:

ـ لا تحتاج أن تفعل هذا كل مرة.

قال نديم:

ـ أحتاج.

ـ لماذا؟

ـ لأنني رتبتُ طويلًا كراسي يجلس عليها الناس لسماع ما يبعدهم عن الجبل. دعني أرتب قليلًا كراسي يعودون منها إليه.

لم يجب سليم.

في تلك الفترة، كتب فصلًا من الرواية بعنوان: **الذين عادوا بلا وجوههم**. لكنه، وهو يكتب، اكتشف أن العنوان لا ينبغي أن يكون حكمًا نهائيًا، بل مرحلة. فالذين عادوا بلا وجوههم لا بد أن يتعلموا كيف يستردونها؛ لا بالخطابة، ولا بالدموع، ولا ببيانات الاعتذار وحدها، بل بعملٍ طويلٍ متواضعٍ يعيد للوجه ملامحه الأولى.

كتب:

عادوا بلا وجوههم، لأن الطريق إلى الغنيمة كان قد أخذ منهم شيئًا لم يشعروا به يومًا بيوم. لم ينتزع ملامحهم دفعةً واحدة، بل أعاد ترتيبها حتى صارت قابلةً للتصفيق أكثر من قابليتها للحياء. فلما رجعوا، لم يعرفهم الجبل لأول وهلة، لا لأن الجبل قاسٍ، بل لأن الرجوع بالجسد أسرع من رجوع الوجه.

ثم كتب:

وكان عليهم أن يتعلموا أن التوبة ليست أن يقول الإنسان: كنت مخطئًا، ثم ينتظر أن يعود كل شيءٍ إلى مكانه؛ بل أن يقبل أن الأماكن تغيّرت بسببه، وأن بعض القلوب تحتاج وقتًا لتصدق، وأن بعض الجراح لا يجوز استعجال شفائها فقط لأن الجارح ندم.

ولم يكن نديم وحده من عاد بلا وجهه.

فبعد بيانه، بدأ بعض الذين ساروا خلفه يراجعون أنفسهم. أحد الكتّاب الشباب حذف مقالاتٍ كان يهاجم فيها «ثقافة الثغر»، ثم كتب: «كنت أردد مصطلحات لم أفهم جذورها». باحثةٌ كانت تعمل في مشروع أفق أرسلت إلى مريم تقول: «أريد أن أتعلم كيف أخدم التراث دون أن أحنطه». وشابٌ حضر مؤتمر «ما بعد الحراسة» جاء إلى المجلس، جلس في آخر الصف، ثم قال بعد اللقاء: «لم أكن ضدكم. كنت فقط أحب أن أكون مع المنتصرين».

هذه الجملة آلمت سليم.

كم من الناس لا يختارون الباطل لأنهم يؤمنون به، بل لأنهم يخافون أن يكونوا في الجهة الخاسرة. وكم من الحق يُترك لا لأنه ضعيف الحجة، بل لأنه ضعيف الزينة. وكم من الباطل يُتّبع لا لأنه مقنع، بل لأنه واثق، مضاء، ممول، محاطٌ بالكاميرات.

في إحدى جلسات المجلس، جعل سليم موضوع اللقاء:

فتنة الجهة الرابحة

قال:

ـ ليست كل غنيمة مالًا. أحيانًا الغنيمة أن تكون في المكان الذي يبدو منتصرًا. أن لا تُتعبك الحاجة إلى التبرير. أن تدخل قاعةً فيصفق الناس قبل أن تفهم. أن تقول العبارة المتداولة فيطمئن لك الجميع. هذه غنيمةٌ نفسية، وربما كانت أشد خطرًا من المال؛ لأن من يأخذ المال يعرف أنه أخذ شيئًا، أما من يأخذ شعور الانتماء إلى الجهة الرابحة، فقد يظن أنه أخذ دليلًا على صحة طريقه.

قال بلال:

ـ وكيف ننجو من هذه الفتنة؟

قالت مريم:

ـ بأن نربّي في أنفسنا القدرة على الوقوف مع المعنى ولو بدا وحيدًا، وعلى الشك في الزحام حين يتحول إلى برهان.

قال ياسر:

ـ وبأن نسأل: ما الذي يجعل هذه الجهة رابحة؟ الحق؟ أم التمويل؟ أم الخوف؟ أم ذكاء اللغة؟ أم تعب الناس من المقاومة؟

قال عمار:

ـ وبأن نبحث عن الجهة التي تخاف من نفسها. غالبًا هي أقرب إلى النجاة.

نظروا إلى نديم، فخفض رأسه مبتسمًا.

قال:

ـ وأنا أضيف: لا تثقوا كثيرًا بمن يشرح لكم فضائل النزول وهو لا يزال يحتفظ بمصعدٍ خاص إلى المنصة.

ضحك المجلس كله.

كانت ضحكةً صافية. حتى نديم ضحك على نفسه. وفي تلك اللحظة شعر سليم أن وجهه بدأ يعود قليلًا؛ لأن الإنسان حين يستطيع أن يضحك على كبريائه القديم دون أن يجلد نفسه تمثيلًا، يكون قد خطا خطوةً نحو العافية.

لكن العافية لا تأتي بلا امتحان.

بعد أسابيع، عُرض على نديم ظهورٌ تلفزيوني للحديث عن «تحولاته الأخيرة». كان العرض مغريًا، والبرنامج واسع الانتشار. جاء يستشيرهم.

قال عمار فورًا:

ـ لا.

قال ياسر:

ـ لماذا لا؟

قال عمار:

ـ لأن الرجل لم يجفّ من ماء التوبة بعد، وتريدون وضعه تحت الأضواء؟

قالت مريم:

ـ أوافق عمار. ليس كل حقٍ يقال الآن. قد يكون الظهور محاولةً لتحويل العودة إلى حدث إعلامي.

قال نديم:

ـ لكن ربما أستطيع تصحيح شيءٍ مما نشرته.

قال سليم:

ـ ستصحح، لكن ليس الآن. دع أفعالك تسبق تفسيرك. لقد تكلمت طويلًا في مرحلة النزول. اصمت قليلًا في مرحلة العودة.

كانت الجملة صعبة. لكنها قبلها.

رفض نديم المقابلة.

كتب لصاحب البرنامج:

أحتاج إلى وقتٍ أعمل فيه أكثر مما أتكلم.

حين قرأ سليم الرسالة، شعر أن هذا أول فعلٍ حقيقي في التوبة؛ أن يرفض الإنسان منصةً لا لأنه خائفٌ منها، بل لأنه لم يعد يريد أن يجعل نفسه موضوعًا قبل أن يسترد عمله.

وفي آخر الشهر، حدث شيءٌ صغيرٌ لكنه عميق.

جاء نديم إلى المقهى القديم وحده، قبل الجميع. جلس على الطاولة التي كانوا يجلسون حولها في أيام الخميس الأولى. أخرج من حقيبته ورقةً قديمةً مصورة. كانت نسخةً من **ميثاق الرماة الأول**. حصل عليها من ياسر. ظل يقرأ البنود بصمت، ثم كتب في أسفلها:

خنتُ بعض هذا، لا كله. وبقي بعضه فيّ، لا بفضلي.

حين دخل سليم، رآه يطوي الورقة.

قال:

ـ أتقرأ الماضي؟

قال نديم:

ـ أحاول أن أعرف أين بدأ النزول.

جلس سليم أمامه.

قال نديم:

ـ لم يبدأ يوم ظهرت في التلفاز. بدأ قبل ذلك. يوم صرت أحب أن أكون أعقل منكم دائمًا. يوم صرت أفرح إذا قال لي أحد: أنت مختلف عن أصحابك، أنت متزن. يوم بدأت أستعمل نقدي لحدتكم كسلّمٍ خفيّ لصعودي.

قال سليم:

ـ هذا اعترافٌ مؤلم.

قال نديم:

ـ نعم. لكنه أوضح من كل تقاريري.

ثم قال:

ـ هل تظن أن وجهي يعود؟

نظر إليه سليم.

ـ يعود بالصدق، لا دفعةً واحدة.

ـ وهل ستعرفه إذا عاد؟

ـ إن عاد حقًا، سيعرف نفسه قبل أن أعرفه أنا.

في تلك الليلة، اجتمع أصحاب الخميس مرةً أخرى كما كانوا في البداية: سليم، عمار، ياسر، نديم. ومريم معهم، لا كطارئةٍ على الحكاية، بل كمن أنقذت الحكاية من قسوتها. جلسوا في المقهى القديم. لم تكن الأمور كما كانت، ولن تعود. وهذا حسن؛ فالعودة إلى الماضي وهمٌ آخر. لكنهم استطاعوا أن يجلسوا حول طاولةٍ واحدة دون أن يكذبوا.

قال عمار:

ـ أقترح أن ندفع الحساب جميعًا إلا نديم. هو يدفع ضعفًا عن سنوات المركز.

قال نديم:

ـ أقبل.

قال ياسر:

ـ هذا ليس عدلًا منهجيًا.

قال عمار:

ـ بل عدالة شعرية.

قالت مريم:

ـ دعوه يدفع. بعض الفواتير رمزية.

ضحكوا.

كان المشهد بسيطًا، لكنه في قلب سليم كان عظيمًا. ليس لأن الجرح انتهى، بل لأنه لم يعد ينزف بالطريقة نفسها. ولأن الإنسان قد يعود بلا وجهه، ثم يبدأ مع الصادقين رحلة استعادته. ولأن الجبل لم يكن قاسيًا كما ظن النازلون، لكنه لم يكن رخيصًا كما تمنوا.

عاد سليم إلى غرفته في آخر الليل، وكتب خاتمة الفصل التاسع:

عاد بعضهم بلا وجوههم، لكنهم لم يعودوا بلا قلوب. وكان هذا كافيًا لتبدأ الرحلة الأصعب: أن يسترد الإنسان ملامحه من بين أيدي الذين صفقوا له حين فقدها.

ثم كتب:

لم تكن العودة نصرًا كاملًا، ولا محوًا لما جرى، ولا عرسًا أخلاقيًا ينسى الندوب. كانت عودةً على قدر البشر: مترددة، موجوعة، ناقصة، لكنها صادقة بما يكفي لئلا تُطرد من باب الرجاء.

وتوقف طويلًا عند السطر الأخير.

ثم أضاف:

فالجبل لا يصفق للعائدين كما لا يصفق للثابتين، لكنه يفتح لهم طريقًا صاعدًا لا يمشيه عنهم أحد. ومن أراد وجهه القديم، فليصعد بقدميه، وليقبل أن يعرفه الناس ببطء، كما ضاع منهم ببطء.

الفصل العاشر

لَمْ نَبْرَحْ أَمَاكِنَنَا

لم تكن النهاية كما تخيّلها سليم حين كتب السطر الأول من روايته.

كان يظن، في أول الطريق، أن النهاية ستكون مشهدًا عاليًا: رجلٌ ثابتٌ على جبلٍ عالٍ، ومدينةٌ تعترف متأخرةً بخطئها، ونازلون يعودون في صفوفٍ طويلة، وغنائم تفقد بريقها دفعةً واحدة، وصوتٌ من بعيدٍ يقول للحراس: صدقتم، لقد كنتم على حق.

لكن الحياة لا تمنح المعاني الكبرى نهاياتٍ مسرحيةً بهذه السهولة.

فالمدينة لم تتب كلها.
ومؤسسة أفق لم تسقط.
والمرصد لم يغلق أبوابه.
والذين سخروا من الحراسة لم يعودوا جميعًا.
والغنائم لم تنطفئ.
والجبل لم يصر مريحًا.
والحراس لم يتحولوا إلى أبطالٍ بلا ضعف.
والطريق، بعد كل ما حدث، بقي طريقًا.

وهذا ما جعله أكثر صدقًا.

فلو انتهت المعركة بانتصارٍ ظاهرٍ سريع، لفقدت الرواية معناها؛ لأن المعارك التي تتصل بالمعنى لا تُحسم في مشهدٍ واحد، بل تُورَّث من قلبٍ إلى قلب، ومن جيلٍ إلى جيل، ومن حارسٍ يتعب إلى حارسٍ يتعلم كيف يحمل القوس دون أن ينسى الرحمة.

كان مجلس المعنى قد مضى عليه عامٌ كامل.

لم يكبر كثيرًا، لكنه لم يمت. تغير بعض وجوهه، وغاب بعض شبابه، وجاء آخرون، وكثرت أسئلته أكثر مما كثرت أعداده. كان هذا يرضي سليمًا؛ لأنه صار يخاف من المجالس التي تكبر أسرع من قدرتها على الصدق. العدد قد يكون بركة، وقد يكون غنيمةً أخرى، والفرق بينهما لا يعرفه إلا قلبٌ يفتش عن نيته كلما امتلأت المقاعد.

في تلك الليلة قرروا أن يعقدوا لقاءً خاصًا، لا درسًا ولا ندوة، بل جلسة مراجعة. جلسوا في المكتبة القديمة: سليم، مريم، عمار، ياسر، نديم، حذيفة، بلال، والفتاة التي صارت تكتب باسمها الآن: هناء.

كانت المكتبة قد تغيرت قليلًا. أصلحوا بعض رفوفها، ومسحوا الغبار عن واجهتها، وجمعوا لها كتبًا من بيوتٍ كثيرة. صار الناس يسمونها بهدوء: **مكتبة المعنى**، مع أن صاحبها الشيخ العجوز كان لا يزال يصرّ على اسمها القديم، ويقول: «لا تغيروا أسماء الأشياء كثيرًا، فالأسماء إذا تبدلت بسرعة فقدت البركة».

بدأ اللقاء بصمت.

ثم قال سليم:

ـ مضى عام. لا أريد أن نسأل: ماذا أنجزنا؟ فهذا سؤالٌ قد يخدعنا. أريد أن نسأل: ماذا فعل هذا الطريق بنا؟

قال عمار:

ـ جعلني أدفع ثمن الشاي أكثر مما توقعت.

ضحكوا.

ثم قال، وقد ترك المزاح قليلًا:

ـ جعلني أقل غرورًا بغضبي. كنت أظن أن الغضب دليل صدقٍ دائم، ثم عرفت أنه أحيانًا دخانٌ كثيف يحجب عن الشاعر عيوب قلبه. لكنه جعلني أيضًا أقل خجلًا من حرارة الحق. تعلمت أن أطفئ النار التي تحرقني، لا النار التي تدفئ الطريق.

قال ياسر:

ـ وأنا جعلني أتوب من عبادة التعقيد. كنت أظن أن كل وضوحٍ تبسيط، وكل حسمٍ ضعفٌ في التحليل. الآن عرفت أن العقل إذا لم يسجد، صار قادرًا على تبرير كل شيء. ليس المطلوب أن نلغي التعقيد، بل أن لا نجعله مقبرةً للواجب.

قال نديم بهدوء:

ـ جعلني أعرف أن الطريق إلى النفس أطول من الطريق إلى المنصة. كنت أظن أنني أتحكم في صورتي، ثم اكتشفت أن الصورة تتحكم في صاحبها إذا

أطال النظر إليها. لا أقول إنني عدت كما كنت. ربما لا يعود الإنسان كما كان. لكنني بدأت أكره الكذب الذي كنت أسميه اتزانًا.

قالت مريم:

ـ وجعلني أفرق بين الصبر والانتظار. الصبر عملٌ في الداخل، أما الانتظار فقد يكون عجزًا مهذبًا. كنت أرفض أبوابًا كثيرة، ثم أجلس حزينة. الآن أحاول أن أبني بابًا صغيرًا بدل أن أظل أبكي أمام الأبواب الكبيرة التي لا تسمح لي بالدخول إلا ناقصة.

قال حذيفة:

ـ جعلني أفهم أن الكاميرا ليست عينًا بريئة. كل زاوية موقف. وكل حذف موقف. وكل إضاءة موقف. كنت أصور ما يطلبه الآخرون، ثم أقول: أنا مجرد مصور. الآن أعرف أن «المجرد» هذه كذبة مريحة.

قال بلال:

ـ جعلني أراجع الجهة التي أحب أن أكون معها. كنت أبحث عن المكان الرابح. الآن أبحث عن المكان الذي إذا خسرت معه لم أخسر وجهي.

وقالت هناء، بصوتٍ لا يزال فيه شيءٌ من خجل البدايات:

ـ جعلني أكتب دون أن أنتظر أن أكون كاملة. كنت أظن أن الضعيف لا يخدم المعنى، ثم عرفت أن الصدق الضعيف إذا تربى صار أقوى من البلاغة الكاذبة.

كان سليم يسمعهم، ويشعر أن الرواية التي كتبها على الورق صارت تكتب نفسها في وجوههم. لم تكن عظمتها في جملها، ولا في استعاراتها، ولا في عنوانها، بل في أنها خرجت من كونها حكايةً عن الثبات إلى كونها تدريبًا على الثبات.

قالت مريم:

ـ وأنت يا سليم؟ ماذا فعل الطريق بك؟

لم يكن يحب أن يجيب عن نفسه. لكنه عرف أن السؤال عادل.

قال بعد صمت:

ـ علّمني أنني لست الجبل. أنا واحدٌ من الواقفين عليه، وقد أنزل إن لم يرحمني الله. وعلّمني أن الثبات لا يكتمل حين أكتب جملةً جميلةً عن الحراسة، بل حين أقبل أن يراجعني أصحابي، وأن أمدّ يدي لمن عاد، وأن لا أستعمل الحق لأداوي جرح كرامتي. وعلّمني أن أبي لم يترك لي وصيةً لأعلو بها على الناس، بل لأخجل بها من نفسي كلما مال قلبي إلى النزول أو إلى الكبر.

صمت المجلس.

كان ذكر الأب يعيد إلى الحكاية أصلها الأول. كأن الرجل الميت ما زال يجلس بينهم، لا ببدنه، بل بجملته التي صارت بذرةً لكل هذا:

لا تنزل عن الجبل ولو رأيت الناس يجمعون الذهب.

في تلك الليلة، أخرج سليم أوراق الرواية المطبوعة. كانت مخطوطةً كاملةً تقريبًا. وضعها على الطاولة وقال:

ـ هذه الرواية لم تعد لي وحدي. أنتم فيها، لا بأسمائكم فقط، بل بامتحاناتكم. قبل أن أختمها، أريد أن أقرأ عليكم فصلها الأخير.

قال عمار:

ـ أخيرًا سنعرف هل قتلتني في النهاية.

قال ياسر:

ـ لو قتل الشخصية الشعرية سيكون ذلك ضرورةً بنائية.

قال عمار:

ـ أنت ما زلت خطرًا حتى بعد التوبة من التعقيد.

ابتسم سليم، ثم بدأ يقرأ.

قرأ عن الجبل الذي بقي صامتًا.
عن المدينة التي لم تتب كلها لكنها لم تعد مطمئنةً إلى قاموسها الجديد.
عن نديم الذي صار يجلس في آخر المجلس ويرتب الكراسي.
عن عمار الذي كتب قصيدةً بلا غضب زائد.
عن ياسر الذي صار يعلم الشباب كيف يسألون المصطلحات عن آبائها.
عن مريم التي أسست مشروعًا صغيرًا لفهرسة المخطوطات بأسمائها الإيمانية كما هي، لا كتحفٍ ميتةٍ في متحفٍ بارد.

عن حذيفة الذي حفظ وجوههم من الزوايا الكاذبة.
عن هناء التي كتبت نصًا صغيرًا جعل فتاةً أخرى تجرؤ على الكتابة.
وعن سليم نفسه، الذي اكتشف أن الكاتب ليس من يصف الجبل من بعيد، بل من يقبل أن يجرح الجبل قدميه.

وحين وصل إلى الخاتمة، تغيّر صوته قليلًا.

قال:

لم نبرح أماكننا، لا لأن أقدامنا من صخر، بل لأن الأمر كان أرسخ من ضعفنا. رأينا الغنائم تلمع، واشتهينا بعضها، وخفنا من بعضها، وكدنا ننزل إليها أكثر من مرة. لم نكن أنقياء كما يحلو للناس أن يرسموا الثابتين، ولا كنا قساةً كما يحب النازلون أن يتخيلوا الواقفين. كنا بشرًا، نحمل في صدورنا قلوبًا ترتجف، وفي أيدينا سهامًا لا تصيب دائمًا، وفي عيوننا غبار المعركة، وفي ذاكرتنا وصيةً قديمة: لا تتركوا ظهوركم مكشوفة.

توقف لحظة، ثم أكمل:

لم نبرح أماكننا، لأننا تعلمنا أن الموضع ليس حجرًا نقف عليه، بل عهدٌ نقف به. وأن الجبل قد يكون كلمةً لا تُحذف، أو بابًا لا ندخله بلا أمانتنا، أو مالًا نرده لأنه يريد شراء صمتنا، أو منصبًا نتركه لأنه يطلب وجوهنا ثمنًا، أو صديقًا ننتظر عودته ولا نكذب لأجل عودته، أو مجلسًا صغيرًا يحفظ أسماء الأشياء من أن تُقلَب.

كانت مريم تنظر إلى الطاولة. وعمار لم يعلّق. ونديم أغلق عينيه.

واصل سليم:

لم نبرح أماكننا، لا لأن المعركة انتهت ونحن لم نعلم، بل لأن المعركة في كل عصر تبدأ من اللحظة التي يظن فيها الناس أنها انتهت. تبدأ حين يصبح التنازل لغةً راقية، والخوف حكمةً مطلقة، والمداهنة اتزانًا، والغنيمة فرصةً، والحراسة عزلة، والثبات تهمة. تبدأ حين يقال للحارس: انزل إلى الناس، وهو يعلم أن بقاءه في موضعه إنما كان من أجل الناس.

ثم قرأ السطر الذي ظل يؤجله منذ بداية الرواية:

لم نبرح أماكننا؛ لأننا لسنا أصحاب الجبل، بل مؤتمنون عليه. والمؤتمن لا يترك الأمانة حين يتعب، ولا يبيعها حين يجوع، ولا يجعلها سوطًا حين يغضب، ولا يحوّلها إلى منصةٍ حين يُمدح.

رفع رأسه قليلًا.

كان المجلس ساكنًا.

أكمل:

ولذلك لم يكن انتصارنا أن بقي بعضنا، ولا أن عاد بعض من نزل، ولا أن انكشف بعض اللمعان، ولا أن ارتبكت المدينة في أسمائها. كان انتصارنا الوحيد أننا لم نعد نصدق الغنيمة حين تقول: لقد انتهى الأمر. وأننا لم نعد نصدق الثبات حين يتحول في قلوبنا إلى كبر. وأننا تعلمنا، بعد وجعٍ طويل، أن الجبل لا يُحرس بالقدم وحدها، بل بالقلب والرفقة والرحمة واليقظة.

ثم ختم:

وفي آخر الليل، حين هدأ ضجيج المدينة، نظر سليم إلى الجبل الذي لا يراه أحد، فلم يجده بعيدًا كما كان يظن، بل وجده في موضعٍ صغيرٍ من صدره، حيث يقف الإنسان وحده أمام ربه، فيسمع نداءات السفح كلها، ثم يقول بصوتٍ لا يسمعه إلا الله: ما زلنا على جبل الرماة، لم نبرح أماكننا.

انتهى.

لم يصفق أحد.

وكان هذا أجمل ما في اللحظة.

لقد فهموا أخيرًا أن بعض النصوص لا يناسبها التصفيق، بل الصمت. التصفيق يعيدها إلى السوق، أما الصمت فيتركها تعمل في القلب.

بعد قليل، قال عمار بصوتٍ منخفض:

ـ هذا لا يصلح أن يكون نهاية فقط.

قال سليم:

ـ وماذا يكون؟

قال:

ـ يكون عهدًا.

قالت مريم:

ـ بل يكون بدايةً ثانية.

قال ياسر:

ـ النهاية الجيدة هي التي تجعل ما بعدها أكثر مسؤولية، لا أكثر راحة.

قال نديم:

ـ وأصعب ما فيها أنها لم تمحُ شيئًا. تركت الندوب في مكانها.

قالت مريم:

ـ لأن الندوب إذا صارت صادقةً قد تتحول إلى ذاكرةٍ تحفظ الإنسان من تكرار الجرح.

في تلك الليلة، قبل أن يغادروا، طلب سليم من كل واحدٍ أن يكتب جملةً في آخر المخطوطة. لم تكن إهداءات، بل شهاداتٍ صغيرة.

كتب عمار:

تعلمت أن السهم لا يكون شجاعًا حتى يعرف متى لا يطير.

وكتب ياسر:

كل مصطلحٍ لا يمرّ على التقوى قد يصير جسرًا إلى الخيانة.

وكتبت مريم:

لا تحفظوا المعنى من الناس، بل احفظوه للناس، واحفظوا قلوبكم من أن تتكبر بحراسته.

وكتب حذيفة:

الزاوية التي تخفي الجرح تكذب ولو لم تغيّر الصورة.

وكتب بلال:

لا تجعلوا الجهة الرابحة قبلةً لضمائركم.

وكتبت هناء:

قد يبدأ الثبات من يدٍ خائفةٍ تكتب أول صدقها.

أما نديم، فتردد طويلًا، ثم كتب:

من نزل لا يعرف قسوة السفح إلا حين يبدأ الصعود. لا تغلقوا الطريق، ولا ترخّصوا النزول.

قرأ سليم الجمل، وشعر أن المخطوطة صارت أثقل وأصدق.

بعد منتصف الليل، خرجوا من المكتبة. كانت المدينة هادئةً، لكن الهدوء لم يكن براءةً كاملة. في الطرف الآخر من الشارع كانت لافتةٌ جديدة لمؤسسة أفق تعلن عن برنامجٍ ثقافيٍّ آخر بعنوان: **أفق المشاركة الشاملة**. رأى عمار اللافتة وقال:

ـ ها قد عادت الغنيمة بعباءةٍ جديدة.

قال ياسر:

ـ ليست كل مشاركة غنيمة.

قال عمار:

ـ أعلم. لكنني أحب استفزازك.

قالت مريم:

ـ المهم أن لا نستريح.

قال سليم:

ـ ولا نيأس.

نظر نديم إلى اللافتة، ثم قال:

ـ ولا نظن أن معرفتنا القديمة تكفينا. الفتنة تتعلم أيضًا.

كانت جملةً صادقة.

نعم، الفتنة تتعلم. تغيّر خطابها، تصقل عباراتها، تستفيد من أخطائها، تدخل من بابٍ جديدٍ كلما أُغلق باب. ولذلك لا يكفي أن يكون الحارس قد انتصر أمس. عليه أن يستيقظ اليوم، كأن الجبل أُعطي له من جديد.

افترقوا عند المنعطف.

سار سليم وحده إلى بيته. كانت أوراق الرواية تحت ذراعه، والبرد خفيفًا، والسماء صافية. مرّ بجانب المقهى القديم. كان مغلقًا، لكن الطاولة التي اعتادوا الجلوس إليها تظهر من وراء الزجاج كذكرى لا تريد أن تموت. وضع يده على الزجاج لحظةً، ثم مضى.

حين وصل إلى البيت، صعد إلى غرفته. جلس أمام المكتب، ووضع المخطوطة أمامه. بجانبها دفتر أبيه الأسود. فتح الدفتر على الصفحة الأخيرة، حيث الجملة الأولى:

إذا أمرَك اللهُ أن تقف، فلا تجعل حركة الناس دليلًا على أن الموضع تغيّر.

ابتسم.

ثم أخذ قلمه، وكتب تحتها:

وقد يكون من تمام الوقوف أن تمد يدك لمن تعب، وأن تراجع قلبك إذا أعجبته قامته، وأن تعرف أن الجبل أمانةٌ لا ملكية.

أغلق الدفتر، ثم فتح المخطوطة وكتب الصفحة الأخيرة، لا بوصفها فصلًا روائيًا فقط، بل بوصفها خاتمةً لكل ما حدث.

خاتمة الرواية

لم يكن الجبل عاليًا بما يكفي ليراه جميع الناس، لكنه كان عاليًا بما يكفي ليكشف الذين صعدوه إلى أنفسهم.

كان الذين في السفح يظنون أن الواقفين عليه محرومون من الحياة، وكان الواقفون عليه يكتشفون كل يومٍ أن الحياة الحقيقية ليست في كثرة ما يناله الإنسان، بل في أن لا يضيع منه اسمه وهو ينال. لم يكونوا ضد الدنيا، ولا ضد الفرح، ولا ضد المشاركة، ولا ضد الناس؛ كانوا فقط يخافون من تلك اللحظة التي يأتي فيها الإنسان إلى الدنيا بلا عهد، وإلى الفرح بلا شكر، وإلى المشاركة بلا أصل، وإلى الناس بلا أمانة، فيظن أنه اتسع، وهو في الحقيقة قد تسرّب.

وكانت المدينة، رغم ضجيجها، تحتاج إلى أولئك الواقفين الذين لا تفهمهم دائمًا. تحتاج إلى من يحرس الكلمات من أن تُسرق، والذاكرة من أن تُعاد كتابتها، واليقين من أن يتحول إلى ذوقٍ شخصي، والرحمة من أن تصير عذرًا للذوبان، والحق من أن يصير سيفًا بلا قلب. تحتاج إليهم حتى وهي تسخر منهم؛ لأن الأمم، حين تفقد حراس المعنى، لا تنتبه فورًا إلى ما فقدت، بل تظل تمشي قليلًا بوجهٍ مطمئن، حتى تأتيها الضربة من ظهرٍ تركته مكشوفًا.

لم يكن سليم يريد أن يكون بطلًا.

كان يريد، في أضعف لحظاته، أن يستريح. أن يكتب نصًا خفيفًا لا يكلّفه عداوةً ولا سوء فهم. أن يذهب إلى قاعةٍ واسعةٍ فيصفق الناس له بلا خوف. أن يكون مقبولًا بما يكفي حتى لا تشرح أمه لجارتها لماذا لا يظهر ابنها على الشاشات. أن يربح قليلًا دون أن يمتحن قلبه كثيرًا. أن يقول لنفسه مرةً واحدة: لا بأس، لقد تعبت، والمعركة انتهت.

لكن كلما قال ذلك، سمع صوت أبيه:

لا تنزل عن الجبل ولو رأيت الناس يجمعون الذهب.

ولم يكن الصوت يأمره بالقسوة، ولا بالعزلة، ولا بكراهية الذين نزلوا. كان يأمره فقط أن لا يجعل التعب ناسخًا للعهد، ولا الغنيمة مفسرةً للأمر، ولا حركة الناس دليلًا على أن الموضع تغيّر.

وفي آخر الرواية، لم يرفع سليم رايةً على الجبل، ولم يعلن النصر، ولم يكتب بيانًا ختاميًا إلى المدينة. جلس فقط في غرفته، بعد صلاة الفجر، وقرأ ما تيسر من القرآن، ثم نظر إلى أوراقه، وإلى دفتر أبيه، وإلى الضوء الهادئ الذي بدأ يدخل من النافذة.

كان الفجر لا يزال قليلًا.

لكنه كان فجرًا.

وحين سمع أول حركةٍ في الشارع، عرف أن الناس سيستيقظون إلى يومٍ جديدٍ لا يخلو من الغنائم، ولا من الأسماء المقلوبة، ولا من الدعوات الناعمة إلى النزول، ولا من التعب، ولا من احتمالات الخيانة، ولا من أبواب العودة.

فابتسم.

لم يكن الجبل وعدًا بالراحة.
كان وعدًا بالمعنى.

ومدّ يده إلى آخر صفحة، وكتب العبارة التي لم تعد شعارًا بعد كل هذه الطريق، بل صارت معرفةً مجروحةً ومطمئنة:

ما زلنا على جبل الرماة. لم نبرح أماكننا.

ثم وضع نقطةً أخيرة.

لا لأنها نهاية المعركة.

بل لأنها بداية الحراسة.

تمت بحمد الله